سلسلة أخطاء في السلوك والتعامل

٥

سُوءُ الخُلُقِ

مَظاهِرُه - أسْبابُه - عِلاجه

محمد بن إبراهيم الحمد

طبعة ثانية
منقحة ومزيدة

دار ابن خزيمة

ح دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع ، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحمد ، محمد بن إبراهيم
سوء الخلق : مظاهره ، أسبابه ، علاجه . ــ الرياض .
١٨٤ص ؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك ٠-٥-٧٤٧-٩٩٦٠
١- الأخلاق الإسلامية أ- العنوان
ديوي ٢١٢,٣ ١٨/ ١٤١٨

رقم الإيداع: ١٨/ ١٤١٨
ردمك ٠-٥-٧٤٧-٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

دار ابن خزيمة
للنشر والتوزيع
هاتف : ٤٧٦٩٩٣٢

المقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهـد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعـــد:

فإن شأن الأخلاق عظيم، وإن منزلتها لعاليةٌ في الدين؛ فالدين هو الخلق، وأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً، وأحسنهم أخلاقاً أقربهم من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم القيامة مجلساً.

ولقـد تظاهـرت نصـوص الشرع في الحديث عن الأخلاق، فحثَّتْ، وحضَّتْ، ورغبت في محاسن الأخلاق، وحذرت، ونفرت، ورهبت من مساوىء الأخلاق.

بل إن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيّن أن الغاية من بعثته إنما هي إتمام صالح الأخلاق.

قال ـ عليه الصــلاة والســلام ـ: «**إنمـا بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٣٨١، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، والخرائطي في مكارم الأخلاق ١/١ رقم ١٩، والحاكم في المستدرك ٢/٦١٣ كلهم عن أبي =

بل إن النـاس على اختـلاف مشـاربهم يُحبّـون محـاسن الأخلاق، ويألفون أهلها، ويبغضون مساوىء الأخلاق، وينفرون من أهلها.

ومـع عظم تلك المنـزلـة لحسن الخلق ـ إلا أن كثيراً من المسلمين قد فرَّطوا في هذا الجانب، فلم يُلقوا له بالاً، ولم يعيروه اهتمـامـاً، فسـاءت أخـلاق كثير منهم، وشـاعت مظاهر السوء في صفوفهم، فأصبحوا بذلك فتنة لغيرهم، خصوصاً ممن يريد الدخول في دينهم؛ وذلك عندما يرى البعد السحيق، والبون الشاسع، بين حال المسلمين وبين ما يدعوهم إليه دينُهم القويمُ.

ولهذا جاءت هذه الصفحات محذرةً من مساوىء الأخلاق، مرغبـةً في محـاسنها، وذلك إسهاماً في هذا المجال، ومحاولة في الارتقاء بأخلاق المسلمين إلى الأمثل والأكمل.

أما عنوان هذا الكتاب فهو:

سـوء الخلـق

مظاهره ـ أسبابه ـ علاجه

وتحت هذا العنوان سيتم الحديث عن سوء الخلق من حيث تعريفُه، وذمه، والوقوف على مظاهره، وأسبابه التي تبعثه وتحركه؛ فتشخيص الداء مفيد في وصف الدواء.

= هريرة، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه أحمد شاكر في شرحه للمسند ١٧ / ٧٩ رقم (٨٩٣٩)، وصححه أيضاً الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٠٧)، وفي الصحيحة (٤٥).

وبعد ذلك سينتقل الحديث عن زبدة هذا الكتاب، ألا وهي العلاج؛ فلا يكفي مجرد معرفة الداء فحسب، بل لابد مع ذلك من وصف الدواء.

وعـلاج سوء الخلق يكمن في معرفة حدود الأخلاق، وتمييز محاسنها من مساوئها، والوقوف على السبل والأسباب المعينة على اكتساب الأخلاق الرفيعة الفاضلة.

ولهذا جاءت خطة البحث بعد هذه المقدمة مشتملة على بابين وخاتمة، وإليك تفصيل الخطة:

الباب الأول

سوء الخلق مظاهره وأسبابه

وتحته ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تعريف سوءِ الخلق وذمُّه

الفصل الثاني: مظاهر سوء الخلق

الفصل الثالث: أسباب سوء الخلق

الباب الثاني

عــلاج ســوء الخلــق

تمهيد: هل يمكن تغيير الأخلاق أوْ لا؟

الفصل الأول: حسن الخلق وفضائله

الفصل الثاني: أسباب اكتساب حسن الخلق

الفصل الثالث: أمور تتعلق بالأخلاق

الخاتمـة: وتحتوي على ملخص مجمل لأهم ما ورد في الكتاب.

فلعل في هذه الصفحات تذكيراً وتبصيراً، وعسى أن يكون فيها ترهيب من مساوىء الأخلاق، وترغيب في محاسنها، وإعانة على التخلي من الرذائل، والتحلي بالفضائل.

وأخيراً أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ـ أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

محمد بن إبراهيم الحمد
١٤١٦/٤/١٥هـ
الزلفي ١١٩٣٢ ص.ب ٤٦٠

الباب الأول
سوء الخلق مظاهره وأسبابه

وتحته ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تعريف سوءِ الخلق وذمّه

وتحته مبحثان:

المبحث الأول: تعريف سوء الخلق

المبحث الثاني: ذم سوء الخلق

الفصل الثاني: مظاهر سوء الخلق

الفصل الثالث: أسباب سوء الخلق

الفصل الأول
تعريف سوء الخلق وذمه

المبحث الأول: تعريف سـوء الخلق

أولاً ـ تعريف كلمة «سوء»:

السوء مأخوذ من الفعل ساء يسوء سُوءاً.

ومعنى السوء: القبح، وهو ضدُّ الحسنِ ونقيضُه.

قال ابن منظور في مادة سوء: «ساءه، يسوءه، سَوْءاً، وسُوءاً، وسواءً، وسوائيةً، ومساءةً، ومسايةً، ومساءً، ومسائية ـ فعل ما يكره»[1].

وقال: «ويقول: ساء ما فعل فلان صنيعاً يسوء: أي قبح صنيعه صنيعاً»[2].

وقال: «والسوء: الفجور والمنكر»[3].

وقال ابن فارس: «تقول: رجل أسوأ: أي قبيح، وامرأة سوآء: أي قبيحة»[4].

وقال: «ولذلك سميت السيئة سيئةً، وسميت النار سُوأى؛ لقبح منظرها.

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١/٩٥.

(٢) (٣) لسان العرب ١/٩٦.

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢/١١٣.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى﴾ [الروم، ١٠]» . [1]

ثانياً ـ تعريف كلمة «الخلق»:

الخُلُقُ، والخُلْقُ: الطبيعة والسجية، وتجمع على أخلاق.

قال ابن منظور: «وفي التنزيل ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم، ٤] والجمع أخلاق لا يُكَسَّر[2] على غير ذلك، والخُلْقُ والخُلُقُ السجية» [3].

وقال: «الخُلق بضم اللام وسكونها، وهو الدين، والطبع، والسجية»[4].

وقال الجاحظ: «الخلق: هو حال النفس بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار.

والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد» [5].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢/١١٣.
(٢) لا يكسر: أي لا يجمع جمع تكسير.
(٣) (٤) لسان العرب ١٠/٨٦ ـ ٨٧ وانظر معجم مقاييس اللغة ٢/٢١٣ ـ ٢١٤.
(٥) تهذيب الأخلاق للجاحظ ص ١٢.

ثالثا ـ تعريف سوء الخلق:

من خلال ما مضى يتبين أن سوء الخلق هو قبحه، ومساوىء الأخلاق: منكراتها، وقبائحها.

ومما يمكن أن يعرف به سوء الخلق أنه:

١ ـ بذل القبيح، وكف الجميل[١].

٢ ـ أو أنه: التحلي بالرذائل، والتخلي من الفضائل.[٢]

(١) (٢) انظر مدارج السالكين ٢/٢٩٤.

المبحث الثاني: ذم سـوء الخلـق

سوء الخلق عمل مرذول، ومسلك دنيء، يمقته الله ـ عز وجل ـ ويبغضه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

بل إن الناس على اختلاف مشاربهم يبغضون سوء الخلق، وينفرون من أهله؛ فهو مما ينفر الناس، ويفرق الجماعات، ويصد عن الخير، ويصدف عن الهدى.

ثم إنه مجلبة للهم والغمِّ، ومدعاة للكدر وضيق الصدر، سواء لأهله أو لمن يتعامل معهم.

فما أضيق عيش من ساء خلقه، ما أشد بلاء من ابتلي بسـيء الخلق.

قال النبي ـ عليه الصـلاة والسـلام ـ: «**وإن أبغضكم إليَّ، وأبعدكم مني في الآخرة أسوؤكم أخلاقاً؛ الثرثارون، المتفيهقون، المتشدقون**»[(١)]

قال الأحنف بن قيس: «ألا أخبركم بأدوأ الداء؟ قالوا: بلى،

---

(١) أخرجه أحمد ١٩٣/٤ ـ ١٩٤ وابن حبان ٢٣٢/٢ رقم ٤٨٢ وابن أبي شيبة ٥١٥/٨ والبغوي في شرح السنة ٣٦٦/١٢ رقم ٣٣٩٥ كلهم من حديث أبي ثعلبة الخشني والترمذي (٢٠١٨) عن جابر وقال: «حديث حسن غريب» وقال الهيثمي في المجمع ٢١/٨: «رجال أحمد رجال الصحيح» وحسنه الألباني في الصحيحة (٧٩١).

قال: الخلق الدني، واللسان البذي»[١].

وقال بعضهم: «من ساء خلقه ضاق رزقه»[٢].

وقال الآخر: «الحَسَنُ الخلق من نفسه في راحة، والناس منه في سلامة، والسيىء الخلق الناس منه في بلاء، وهو من نفسه في عناء»[٣].

بل إن سوء الخلق من أسباب دمار الأمم، وانهيار الحضارات، وصدق شوقي إذ يقول:

وإذا أصيب القومُ في أخلاقهم فَأَقِمْ عليهم مأتماً وعويلا[٤]

هذا وسيتبين ذمُّ سوء الخلق بصورة أجلى عند الحديث عن مظاهره كما سيأتي فيما بعد.

---

(١) (٢) (٣) أدب الدنيا والدين ص ٢٤٢.

(٤) الشوقيات ١/١٨٣.

الفصل الثاني

مظاهر سوء الخلق

سوء الخلق يأخذ مظاهر عديدة، وصوراً شتى، فمن ذلك مايلي:

١ ـ الغلظة والفظاظة:

فتجد من الناس من هو فَظٌّ غليظ، لا يتراخى، ولا يتألف، ولا يلذُّ إلا المهاترة والإقذاع، ولا يتكلم إلا بالعبارات النابية، التي تحمل في طياتها الخشونة والشدة، والغلظة والقسوة.

وذلك كله مدعاة للفرقة والعداوة، ونزغ الشيطان، وعدم قبول الحق.

فهذا النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أنه مرسل من الله، ومؤيد بالوحي، ومع أنه جاء بالهدى ودين الحق ـ قال ربه ـ عز وجل ـ في حقه: ﴿**ولو كنت فظًاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾ [آل عمران، ١٥٩].

٢ ـ عبوس الوجه وتقطيب الجبين:

فكم من الناس من لا تراه إلا عابس الوجه، مُقَطِّب الجبين، لا يعرف التبسم واللباقة، ولا يُوَفَّقُ للبشر والطلاقة.

بل إنه ينظر إلى الناس شزراً، ويرمقهم غيظاً وحنقاً، لا لذنب

ارتكبوه، ولا لخطأ فعلوه، وإنما هكذا يوحي إليه طبعه، وتدعوه إليه نفسه.

وهذا الخلقُ مركبٌ من الكبر، وغلظ الطبع؛ فإن قلة البشاشة استهانة بالناس، والاستهانة بالناس تكون من الإعجاب والكبر.

وقلة التبسم ـ وخاصة عند لقاء الإخوان ـ تكون من غلظ الطبع، وهذا الخلق مستقبح وخاصة بالرؤساء والأفاضل[١].

فالعبوس وما يستتبعه من كآبة، واضطراب نفس ـ دليل على صغر النفس.

أما النفوس الكبيرة فيكتنفها جو السكينة، والطمأنينة[٢].

قيل لحكيم:

«مَنْ أضيقُ الناس طريقاً، وأقلُّهم صديقاً؟

قال: من عاشر الناس بعبوس وجه، واستطال عليهم بنفسه»[٣].

٣ ـ سرعة الغضب:

وهذا مسلك مذموم في الشرع والعقل، وهو سبب لحدوث أمور لا تحمد عقباها؛ فكم حصل بسببه من قتل وطلاق، وفساد لذات البين، ونحو ذلك مما ينتج عن الغضب.

بل إن من الناس من إذا غضب حمله غَضَبُه على التقطيب في

(١) انظر تهذيب الأخلاق للجاحظ ص ٣٢.
(٢) انظر أقوال مأثورة وكلمات جميلة د. محمد بن لطفي الصباغ ص ١٨١.
(٣) أقوال مأثورة ص ١٨٧.

وجه غير من أغضبه، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له، والعقوبة لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك.

ثم يبلغ به الأمر إذا رضي أن يتبرع بالأمر ذي الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده، ويعطي من لم يكن يريد إعطاءه، ويكرم من لم يرد إكرامه.[1]

وهذا من الخرق المذموم، ومما ينافي الحكمةَ، والحزمَ، والمروءةَ، والاعتدالَ.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[2].

فكمال قوة العبد أن يمتنع من أن تؤثر فيه قوة الغضب، فخير الناس من كانت شهوته وهواه تبعاً لما جاء بالشرع، وكان غضبه ومدافعته في نصر الحق على الباطل.

وشر الناس من كان صريع شهوته وغضبه[3].

فمن وفق لترك الغضب أفلح وأنجح، وإلا فلن يصفو له عيش، ولن يهدأ له بال، ولن يرتقي في كمال.

لا يحمل الحِقْدَ مَنْ تعلو به الرتبُ ولا ينال العلا مَنْ طَبْعُهُ الغَضَبُ

---

(١) انظر الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع ص ١٠٥.
(٢) أخرجه البخاري ١٠/٩١ ومسلم (٢١٠٩) عن أبي هريرة.
(٣) انظر بهجة قلوب الأبرار لابن سعدي، شرح الحديث ٧١.

٤ ـ المبالغة في اللوم والتوبيخ:

وهذا يقع كثيراً ممن لهم سلطة وتَمَكُّن، كالرئيس، والمدير، والمعلم، والكفيل، والوالد ونحوهم.

فتجد الواحد منهم يزبد، ويرعد، ويطلق العبارات البذيئة، ويبالغ في اللوم والتوبيخ بمجرد خطأ يسير وقع من شخص تحت سلطته.

وهذا الصنيع مما تكرهه النفوس، وتنفر منه القلوب؛ فالناس يكرهون من يُؤَنِّب في غير مواطن التأنيب، وينفرون ممن يبالغ فيه دون تروٍ أو تؤدة؛ فلربما استبان له فيما بعد أنه ليس على حق، أو أن هناك اجتهاداً صحيحاً.

ومن الأمثلة على ذلك ما يقع من بعض المعلمين مع طلابهم، حيث يبالغ في تقريع الطالب عند أدنى خطأ، وربما كان ذلك الخطأ غير مقصود أصلاً، مما يسبب النفرة من المعلم، والحرج للطالب، فلربما أصيب بسبب ذلك بخيبة أمل، وفقد للثقة بنفسه، وربما ترك الدراسة، فأصبح عالة على أهله ومجتمعه.

وقل مثل ذلك فيما يقع بين الأصحاب والأقارب؛ فقد يمضي على أحدهم زمنٌ طويل لم ير صاحبه، فإذا ما رآه ابتدره باللوم، وأمطر عليه وابلاً من التقريع على غيابه، وقلة اتصاله.

وهذا الأمر ـ وإن كان دليلاً على المحبة ـ إلا أنه سبب للقطيعة والمفارقة؛ لأن الناس لا يحبون أن يُحَمَّلوا كل شيء، وأكثر الناس لا يتحمل أدنى عتب أو لوم.

ثم إن هذا الذي يلوم ينسى أنه يمكن أن يوجه إليه ذلك!.

قال منصور بن الزرقان النمري:

لعل له عذراً وأنت تلوم ... ورُبَّ امرىء قَدْ لام وهو مليم[١]

٥ ـ الكبر:

فهناك من يتكبر في نفسه، ويتعالى على بني جنسه، فلا يرى لأحد قدراً، ولا يقبل من أحد عدلاً ولا صرفاً.

والكبر خصلة ممقوتة في الشرع، والفطر، والعقول، والمتكبر ممقوت عند الله، وعند خلق الله.

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر»**.

قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة.

قال: **«إن الله جميل يحب الجمال؛ الكبر بطر الحق، وغمط الناس»**[٢].

فبطر الحق: رده، وغمط الناس: احتقارهم.

٦ ـ السخرية بالآخرين:

كحال من يسخر بفلان لفقره، أو لجهله، أو لِخَرقِه، أو لرثاثة ثيابه، أو لدمامة خلقته، أو نحو ذلك.

---

(١) أقوال مأثورة ص ٤٢٧ عن نهاية الأرب ٨٦/٣.

(٢) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه (٩١) عن عبدالله بن مسعود.

فهـذا العمل مظهر قبيح من مظاهر سوء الخلق، ويكفي في التنفير منه قوله ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكـونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن﴾ [الحجرات، ١١].

٧ ـ التنابز بالألقاب:

وهذا مما نهانا الله ـ عز وجل ـ عنه، وأدبنا بتركه، كما في قوله ـ تعالى ـ: **﴿ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾** [الحجرات، ١١].

ومـع هذا النهي إلا أننـا نجد أن غالبية الناس لا يعرفون إلا بألقابهم السيئة.

وهذه الألقاب مما يثير العداوة، ويسبب الشحناء في الغالب؛ لأن الناس يحبون من يناديهم بأسمائهم، أو بكناهم الطيبة، وينفرون ممن يناديهم بألقابهم السيئة.

أكـنـيه حين أنـاديه لأكـرمـه　　　ولا أُلَـقِّـبُـه والسـوءةُ اللقبُ

٨ ـ الغيبـة:

تلك الخصلة الـذميمة، التي لا تصدر إلا من نفس ضعيفة وضيعة دنيئة.

والغيبة هي ـ كما أخبر بذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«ذكرك أخاك بما يكره»**[١]

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩)، وأبو داود (٤٨٧٤)، والترمذي (١٩٣٤) كلهم عن أبي هريرة.

والمغتاب يريد التسلق على أكتاف الآخرين، وذلك بالحط من أقدارهم، وتزهيد الناس بهم.

وما علم هذا المغتاب أن الرافع الخافض هو الله ـ عز وجل ـ وأنه بصنيعه يهدي حسناتِه ـ وهي أعز ما يملك ـ لمن يقع في عرضه.

فأين هذا المغتاب من قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه**﴾ [الحجرات، ١٢]؟

بل أين هو من أهل الجاهلية التي كان أشرافها يتمدحون بترك الغيبة.

قال المثقب العبدي:

لا تراني راتعاً في مجلسٍ ... في لحوم الناس كالسبع الضَّرِمْ[١]

والغيبة لا تقتصر على اللسان فحسب، بل قد تكون بالإشارة بالعين، أو اليد، أو نحو ذلك.

أما أسبابها فكثيرة، منها التشفي من الآخرين، ومجاملة الأقران والرفقاء، والحسد، وكثرة الفراغ، والتقرب لدى أصحاب الأعمال والمسؤولين عن طريق ذم العاملين.

ومن أسبابها الإعجاب بالنفس، والغفلة عن التفكر في عيوبها.

وأعظم أسبابها قلة الخوف من الله ـ سبحانه وتعالى ـ[٢].

---

(١) الديوان ص ٢٢٩.

(٢) انظر: الغيبة وأثرها السيء في المجتمع الإسلامي للشيخ حسين العوايشة، ففيه تفصيل رائع للغيبة.

٩ ـ النميـمة:

وهي نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد.

فكم فسد بسببها من صداقة، وكم تَقَطَّعَتْ من أواصر، وكم تحاصَّت من أرحام.

والنميمة كالغيبة من حيث إنها لا تصدر من نفس كريمة، وإنما تصدر من نفس مهينة ذليلة دنيئة.

أما الكرام فإنهم يترفعون عن مثل هذه التُّرَّهات.

وإن مما يزيد الطين بلة أن تجد النميمة آذاناً مصيخة، وأفئدة مصغية، فمن أصاخ السمع وأصغى الفؤاد لمن ينم ـ فإنه مشارك له في الإثم، ومن أطاع الوشاة وصدقهم فلن يبقى له صديق أو قريب.

ومن يُطِعِ الواشين لا يتركوا له صديقاً ولو كان الحبيب المقربا[١]

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «قبول السعاية شر من السعاية؛ لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دل على شيء كمن قبل وأجاز».[٢]

١٠ ـ سمـاع كلام النـاس بعضهم ببعض، وقبـول ذلـك دون تمحيص وتثبت:

فكم جر ذلك من ويلات، وكم أفسد من مودات، وكم أغرى من عداوات.

---

(١) ديوان الأعشى ص ٩.

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/١٦٨.

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي ـ رحمه الله ـ: «من الغلط الفاحش الخطر قبولُ قولِ الناس بعضهم ببعض، ثم يبني عليه السامع حباً وبغضاً، ومدحاً وذماً؛ فكم حصل بهذا الغلط من أمور صار عاقبتها الندامة، وكم أشاع الناس عن الناس أموراً لا حقائق لها بالكلية، أوْلَها بعضُ الحقيقة فنُمِّيت بالكذب والزور، وخصوصاً ممن عُرفوا بعدم المبالاة بالنقل، أو عرف منهم الهوى.

فالواجب على العاقل التثبت والتحرز، وعدم التسرع.

وبهذا يعرف دين المرء ورزانته وعقله»[1].

١١ ـ التجسس والتحسس:

أصل التجسس: تعرف الشيء عن طريق الجس أي الاختبار باليد، **والتحسس**: تعرفه عن طريق الحواس، ثم استعملا في البحث عن عيوب الناس.

وقيل: إن الأول البحث عن العورات، والثاني الاستماع لحديث القوم.

وقيل: إن الأول البحث عن بواطن الأمور، وأكثر ما يكون في الشر، والثاني: ما يدرك بحاسة العين والأذن.

وقيل: التجسس تتبع العورات لأجل غيره، والتحسس تتبعها لنفسه[2].

والحاصل أن التجسس والتحسس مما لا ينبغي، بل نكتفي

(١) الرياض الناضرة ص ٢٠٩.

(٢) انظر الأدب النبوي، محمد عبدالعزيز الخولي، ص ١٣٧.

بالظاهر، ونَكِلُ أمر الباطن إلى العليم الخبير، إلا إذا كان التجسس طريقاً لدرء مفسدة كبيرة، أو جلب مصلحة عظيمة، كما لو علمنا أن أناساً عزموا على ارتكاب جريمة قتل أو سرقة أو نحو ذلك، فتجسسنا عليهم؛ لنحول بينهم وبين ما يشتهون ـ فلا حرج حينئذٍ.

أما إذا قصد بذلك تتبع العثرات، والفرح بالزلات ـ فهذا هو المحذور الذي لاينبغي فعله، ولا الإقدام عليه.

وهذا ـ مع بالغ الأسف ـ دأب كثير من الناس، حيث تجده متتبعاً لعثرات إخوانه، متناسياً حسناتهم، فإذا سمع قبيحاً فرح به ونشر، وإذا سمع حسناً ساءه ذلك وستره.

إن يسمعوا سيئاً طاروا به فرحاً ... مني وما سمعوا من صالحٍ دفنوا[1]

وكما قال الآخر:

يمشون في الناس يبغون العيوب لمن ... لا عيب فيه لكي يُستشرف العطب

إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا ... شراً أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا[2]

فمن هذا دأبه وديدنه فهو من أحقر الناس، وأسفلهم.

شرُّ الورى بعيوب الناس مشتغل ... مثل الذباب يراعي موطن العلل

قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «فمن اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه، وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه؛

(١) عيون الأخبار ٣/٨٤.

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان البستي، ص ١٧٨.

فإن أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم، وأعجز منه من عابهم بما فيه»[١].

ويقال لمن فرح بزلات إخوانه: لاتفرح؛ فلا بد أن تقع في الخطأ في يوم ما، وحينئذٍ:

فلا تغضبن من سيرة أنت سرتها وأول راضٍ سيرةً من يسيرها

١٢ ـ مقابلة الناس بوجهين:

فتجد من الناس من يظهر لجليسه الموافقة والمودة، ويلقاه بالبشر والترحاب.

فإذا ما توارى عنه سلقه بلسان حاد، وشتمه وأقذع في سبه!

وهذه الصفة من أحط الصفات وأخسها، وصاحبها من شر الناس، وأوضعهم.

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**تجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يلقى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**»[٢].

قال إبراهيم بن محمد:

وكم من صديقٍ ودُّهُ بلسانه خؤون بظهر الغيب لا يتذمم
يضاحكني عُجْباً إذا ما لقيته ويصدفني منه إذا غبت أسهم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهداً وفي غَيْبِه إن غاب صابٌ[٣] وعلقم[٤]

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ١٢٥.

(٢) رواه البخاري ٧/٨٧، ومسلم (٢٥٢٦) عن أبي هريرة.

(٣) صاب: الصاب شجر مرٌّ كالعلقم.

(٤) أدب الدنيا والدين ص ٢٢٤.

بل إن أهل الجاهلية ينكرون مثل هذه الصفات القبيحة، قال المُثَقِّب العبدي:

إنَّ شَرَّ الناسِ من يَكْشُرُ[1] لي حين يلقاني وإن غبتُ شَتَمْ[2]

١٣ ـ إساءة الظن:

فإساءة الظن من الأخلاق الذميمة، التي تجلب الضغائن، وتفسد المودة، وتجلب الهم والكدر.

ولهذا حذرنا الله ـ عز وجل ـ من إساءة الظن كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم**﴾ [الحجرات، ١٣].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إياكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكذب الحديث**»[3].

فتجد من الناس من هو سيىء الظنِّ، يحسب أن كل صيحة عليه، وكل مكروه قاصد إليه، وأن الناس لا همَّ لهم إلا الكيد له، والتربص به.

ومن صور سوء الظن عند بعض الناس مايلي:

أ ـ إذا رأى اثنين يتناجيان ظن أنه هو المقصود بالنجوى.

ب ـ إذا سمع ذماً عاماً لخصلة من الخصال ظن أنه هو المقصود بالذم.

---

(١) يكشر لي: يعني يضحك لي.

(٢) الديوان، ص ٢٣٠.

(٣) رواه البخاري ٧/٨٨ ـ ٨٩ ومسلم (٢٥٦٣) عن أبي هريرة.

جـ ـ إذا كان هناك وليمة عند أحد من أقاربه أو أصدقائه، فنسي صاحب الوليمة أن يدعوه ـ أساء الظن به، واتهمه باحتقاره، وازدرائه، وعدم المبالاة به.

د ـ إذا نصحه أحد ظن أن الناصح متغرض له، متعالٍ عليه، متتبع لهفواته، فلا يقبل منه عدلاً ولا صرفاً، فيستمر بذلك على عيوبه، ويبتعد عنه كل من أراد نصحه.

هـ ـ إذا رأى أحداً يمشي حوله ظن أنه يراقبه ويترصد له.

هذه بعض صور سوء الظن، وهو في الغالب لا يصدر إلا عن شخص فارغ، لا شغل له، ولا همَّ عنده، أو شخصٍ سيء الفعال، ذي نفس مضطربة؛ لذلك فهو ينظر إلى الناس نظرة المرتاب، كما قال أبو الطيب المتنبي:

إذا ساء فعلُ المرءِ ساءت ظنونُهُ وصدَّقَ ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه لقول عداته وأصبح في ليلٍ من الشكِّ مظلمِ[1]

وسوء الظن كذلك من الشيطان؛ حيث يلقى في رُوْعِ الإنسان الظنون السيئة، والأوهام الكاذبة؛ ليفسد ما بينه وبين إخوانه.

فما أحرى بالمسلم أن يستعيذ بالله من الشيطان، وأن يمضي لسبيله، ويحسن ظنه بإخوانه المسلمين، وأن يحملهم على أحسن المحامل، وإلا فلن يريح ولن يستريح.

ما يستريح المسيء ظنّاً من طول غمٍّ وما يريح[2]

---

(١) ديوان المتنبي بشرح العكبري في ٤/٢٣٥.
(٢) روضة العقلاء، ص ١٢٦.

ولا يدخل في سوء الظن المذموم ـ الظنُّ بمن أورد نفسه موارد الريب.

ولا يدخل فيه ـ أيضاً ـ من أساء الظن بعدوه الذي يخاف منه، ولا يأمن مكره، بل يلزمه سوء الظن به، وبمكائده ومكره، لئلا يصادف منه غرة فيصيبه من خلالها؛ فهذا من تمام الاحتراز وأخذ الحيطة، وهو محمود على كل حال.

كما أنه ليس من الحزم ولا الكياسة في شيء أن يحسن المرء ظنه بكل أحد، ويثق به ثقة مطلقة، فيبيح له بمكنونه، ويطلعه على كل صغيرة وكبيرة من أمره.

بل إن هذا سذاجة، وبلاهة، وجهل، وغفلة.

١٤ ـ إفشاء الأسرار:

فبعض الناس ما أن يسمع سراً إلا ويضيق به ذرعاً، فتراه يبحث عمن يخبره بسره، ويفضي إليه بمكنونه.

وربما ترتب على إفشاء السر عداوة وفساداً عريضاً.

وبعض الناس يثق بكل أحد، فيفضي إليه بسره، فإذا انتشر الخبر وذاع لام من أذاعه وأفشاه، وما علم أنه هو الملوم؛ لأنه هو أول من نشره.

قال عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: «ما وضعت سري عند أحد فَلُمْتُهُ على أن يفشيه؛ كيف ألومه وقد ضقت به؟!»[(١)].

(١) روضة العقلاء، ص ١٨٨.

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

إذا المرءُ أفشى سِرَّهُ بلسانه ولام عليه غَيْرَهُ فهو أحمقُ
إذا ضاق صَدْرُ المرءِ عن سِرِّ نفسه فَصَدْرُ الذي يُسْتَوْدَعُ السِّرَّ أضيقُ(١)

قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي ـ رحمه الله ـ: «كن حافظاً للسر، معروفاً عند الناس بحفظه، فإنهم إذا عرفوا منك هذه الحال أفضوا إليك بأسرارهم، وعذروك إذا طويت عنهم سر غيرك الذي هم عليه مشفقــون، وخصــوصــاً إذا كان لك اتصـال بكـل واحـد من المتعادين؛ فإن الوسائل لاستخراج ما عندك تكثر وتتعدد من كل من الطرفين، فإياك إياك أن يظفر أحد منهم بشيء من ذلك تصريحاً أو تعريضاً، واعلم أن للناس في استخراج ما عند الإنسان طرقاً دقيقةً، ومسالكَ خفيةً؛ فاجعل كل احتمال ـ وإن بعد ـ على بالك، ولا تؤتَ من جهة من جهاتك؛ فإن هذا من الحزم.

واجـزم بأنك لا تندم على الكتمان، وإنما الضرر والندم في العجلة والتسرع، والوثوق بالناس ثقة تحملك على ما يضر»(٢).

وإن مِنْ حِفظِ الأسرار، بل مما يدل على صدق الوفاء، وكرم العشيرة ـ أن يحفظ المـرء سِرَّ صاحبـه بعد أن تتصرم حبال المودة بينهما؛ ذلك أن دواعي الإفشاء تقوى في تلك الحالة، فإذا كتم المرء سرَّ صاحبه، وحفظ ما كان له من ود ـ دلَّ ذلك كرم نفسه، ورسوخ قدمه في الفضيلة.

---

(١) ديوان الشافعي، ص ٦٤ جمع الزعبي.
(٢) الرياض الناضرة، ص ٢١٠.

ليس الكريم الذي إن زلَّ صاحبُه بثَّ الذي كان من أسراره علما
بل الكريم الذي تبقى مَوَدَّتُهُ ويحفظ السر إن صافى وإن صرما[١]

وإن مما يقع فيه اللبس في هذا الباب كتمَ السرِّ عن الأصدقاء؛ فمن المعروف أن الإنسان لا يكتم عن أصدقائه سراً يخشى من إفشائه ضرراً.

وقد يجد الرجل في نفسه شيئاً متى شعر بأن صديقه قد كتم عنه بعض ما يعلم من الشؤون.

وإلى هذا المعنى أشار بعضهم فقال:

والخِلُّ كالماء يبدي في ضمائره مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

وهناك من ذهب في النصح بكتم السر الذي يُخشى من إذاعته ضرر إلى حد أن نصح بكتمه حتى عن الأصدقاء.

ووجه هذا الرأي إنما هو الخوف من أن يكون لصديقك صديق لا يكتم عنه حديثاً، وإذا انتقل السر إلى صديق آخر لم يؤمن عليه أن يصبح خبراً مذاعاً، قال محمد بن عبشون:

إذا ما كتمتُ السرَّ عمن أَوَدُّه تَوَهَّمَ أن الودَّ غيرُ حقيقي
ولم أُخْفِ عنه السر من ظِنَّةٍ به ولكنني أخشى صديقَ صديقي[٢]

«والقول الفصل في هذا الأمر يرجع إلى قوة ثقتك بصديق الفضيلة، وذكائه، وفهمه قَصْدَكَ لأن يكون هذا السر في صدره لا يتجاوزه إلى غيره.

(١) عين الأدب والسياسة ص ٧٠.
(٢) انظر رسائل الإصلاح لمحمد الخضر حسين ٢/ ١٧.

فإن كان صديقك على هذا المثال فأطلعه على ما في نفسك؛ فإنما أنت وهو روح واحدة ولكنها في بدنين.

فإن كان مع صداقته الخالصة لا تأمن أن يجري على لسانه بعض ما أفضيت به إليه ـ فذلك موضع قول الشاعر:

ولكنني أخشى صديقَ صديقي

ومن الأذكياء من يحرص على كتم سر صديقه، فلا يفضي به إلى صديق له آخر، ولا سيما صديقاً ليس بينه وبين الذي أَوْدَعَ السر صلة صداقة.

قال مسكين الدارمي:

أؤاخي رجالاً لستُ مطلعٌ بعضهم ... على سر بعض غير أني جماعُها
يَظلُّون شتى في البلاد وسرُّهم ... إلى صخرة أعيا الرجالَ انصداعُها[1]

١٥ ـ المؤاخذة بالزلة:

فهنـاك من النـاس من إذا صدر في حقه زَلَّةٌ من صديق، أو بدرت هفوة من قريب ـ زهد به، وتنكر له، وآخذه بزلته.

وهـذا المسلك مسلك خاطىء، والذي يقوم به، ويطرد هذه القاعدة لن يصفو له بال، ولن يرضى عن أحد، بل سيعيش وحيداً طريداً، فأي الرجال المهذب؟!.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المرءَ نبلاً أن تعدَّ معايبه[2]

---

(١) رسائل الإصلاح ١/١٧ ـ ١٨.

(٢) ديوان بشار بن برد، ص ٤٥.

فالعاقل لا يزهد بأحد بسبب هفوة، ولا يؤاخذ بسبب زلة، خصوصاً إذا كانت يسيرةً، أو كانت صادرة من شخص له فضل. كما قيل:

لا يُزْهِـدَنَّـك من أخٍ ... لك أن تراه زلَّ زلـةْ[1]

وكما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذَنْبٍ واحدٍ ... جاءت محاسنُه بألف شفيعِ[2]

وكما قيل:

فإنْ يكنِ الفعلُ الذي ساء واحداً ... فأفعالُه اللائي سررن ألوفُ[3]

١٦ ـ عدم قبول الأعذار:

فتجد من يقع في خطأ في حق أخ له، ثم يعتذر من خطئه، ويلتمس من أخيه مسامحته، ثم يفاجأ بعد ذلك بأن عذره لم يقبل، وبأن عثرته لم تُقَل.

وهذا منافٍ لمكارم الأخلاق؛ «فالواجب على العاقل إذا اعتذر إليه أخوه لجرم مضى، أو لتقصير سبق أن يقبل عذره، ويجعله كمن لم يذنب»[4].

---

(١) روضة العقلاء، ص ٤٥.
(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/١٧٧.
(٣) مفتاح دار السعادة ١/١٧٧.
(٤) روضة العقلاء، ص ١٨٣.

قال ابن المبارك ـ رحمه الله ـ: «المؤمن طالبٌ عُذْرَ إخوانه، والمنافق طالبٌ عثراتِهم»[١].

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

قيل لي قد أسا إليك فلان ومقام الفتى على الذل عارُ
قلت قد أتى وأحدث عذراً دِيَةُ الذنبِ عندنا الاعتذارُ[٢]

فقبول الأعذار من صفات الكرام، حتى ولو كان المعتذر كاذباً.

قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «ولا يخلو المعتذر في اعتذاره من أحد رجلين: إما أن يكون صادقاً في اعتذاره أو كاذباً، فإن كان صادقاً فقد استحق العفو؛ لأن شر الناس من لم يُقِل العثرات، ولا يستر الزلات.

وإن كان كاذباً فالواجب على المرء إذا علم من المعتذر إثم الكذب، وريبته، وخضوع الاعتذار وذلته ـ أن لا يعاقبه على الذنب السالف، بل يشكر له الإحسان المحدث، الذي جاء به في اعتذاره، وليس يعيب المعتذر إن ذل وخضع في اعتذاره إلى أخيه»[٣].

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

اقبل معاذير من يأتيك معتذراً إن برَّ عندك فيما قال أو فجرا

---

(١) أدب العشرة وذكر الصحبة والأخوة لبدر الدين الغزي ص ٤٣.
(٢) ديوان الشافعي، ص ١٨٤ ـ ١٨٥.
(٣) روضة العقلاء، ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

لقد أطاعك من يرضيك ظاهره   وقد أجلَّك من يعصيك مستترا[١]

١٧ ـ التهاجر والتدابر:

وما أكثر وقوع هذا الأمر بين المسلمين، فبمجرد اختلاف يسير، لا يترتب عليه فساد في الدين ـ تجد من يهجر أخاه، ويعطيه ظهره، ويقطع شواجر المحبة والرحمة والأخوة.

قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**»[٢].

وإذا كان هذا الأمر مرفوضاً وقوعُه بين عامة الناس ـ فإن المصيبة تعظم، وإن الخطب لَيَجِلُّ إذا وقع ذلك بين أهل العلم والفضل والعبادة؛ فذلك هو الداء العياء، والطعنة النجلاء.

فمما يدمي الفؤاد، ويدل على استحكام الغفلة، وتمكن الشيطان ـ أن تجد اثنين من أهل العبادة، وممن يتسابق للمجيء إلى المسجد، وقد يكونان ممن بلغ من الكبر عتيًّا، ومع ذلك كله ـ تجدهما متهاجرين متقاطعين، لا يكلم أحدهما الآخر، ولا يسلم عليه بلا سبب يذكر، أو بسبب يسير جداً!.

ومثل ذلك ـ أو أشدُّ ـ ما يقع بين بعض طلبة العلم من تدابر، وتقاطع، ونفرة بسبب حسد، أو اختلاف في رأي لا يوجب اختلاف القلوب؛ مما يسبب الفرقة، وشيوع العداوة والبغضاء، وَتَألُّب بعضهم

---

(١) ديوان الشافعي، ص ٩٩.

(٢) رواه البخاري ٧/٨٨ ومسلم (٢٥٥٩) عن أنس بن مالك.

على بعض؛ مما يجعلهم يفشلون، وتذهب ريحهم، ويصبحون شماتة للأعداء، فيصطلي بنار تلك الفُرقة أهل الخير، والحريصون على جمع الكلمة، وَيُسَرُّ بذلك إبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن، الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

فبدلاً من أن يجمعوا أمرهم، ويلموا شعثهم، تجدهم شذر مذر والله المستعان.

فكيف ـ إذاً ـ يصلحون الناس وهم لما يصلحوا ذات بينهم؟!.

يا مَعْشَرَ القراءِ يا ملحَ البلد　　من يصلحُ الملحَ إذا الملحُ فسد

١٨ ـ الحسد:

وهو تمني زوال نعمة المحسود، أو هو البغض والكراهية لما يراه من حسن حال المحسود.(١)

والحسد داء عضال، وسم قتال، لا يسلم منه إلا من سلمه الكبير المتعال.

ولهذا قيل: «ما خلا جسد من حسد، ولكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه»(٢).

فما أكثر وقوع الحسد بين الناس، فهذا يحسد لعلمه، وهذا يحسد لماله، وهذا لجاهه، وهذا لمنزلته بين الناس.

وأكثر ما يقع بين النظراء والمتشاركين، وأكثر منه ما يكون في صفوف النساء.

والحسد خلق ذميم، ومسلك شائن، فهو مضر بالبدن والدين،

(١) (٢) انظر: أمراض القلوب وشفاؤها لابن تيمية، تحقيق حماد سلامة ص ١٣٤.

وهو من أعظم الأسباب الموجبة للفرقة والاختلاف.

قال بعض السلف: «الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء»[1] يعني حسد إبليس لآدم ـ عليه السلام ـ.

والحسد ـ في الحقيقة ـ اعتراض على قضاء الله وحكمته؛ ولهذا قيل: «من رضي بقضاء الله لم يسخطه أحد، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد»[2].

ثم إن الحاسد هو أول متضرر من حسده، فالضرر لاحق به لا محالة.

قال بعضهم: «ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحسود؛ نفس دائم، وهم لازم، وقلب هائم»[3].

وقيل ـ أيضاً ـ:

لله درُّ الحسدِ ما أَعْدَلَهُ بدا بصاحبه فقتله

وقال ابن المعتز:

اصبر على كيد الحسود فإن صَبْرَكَ قاتلُهْ
كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكلُهْ

قال ابن المقفع: «ليكن ما تصرف به الأذى عن نفسك ألا تكون حسوداً؛ فإن الحسد خلق لئيم.

ومن لؤمه أنه موكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب، والأكفاء، والمعارف، والخلطاء، والإخوان»[4].

---

(١) (٢) (٣) أدب الدنيا والدين ص ٢٦٩.

(٤) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٤٤.

١٩ ـ الحقد:

فتجد من الناس من يحمل قلباً أسود، لا يعرف للعفو طريقاً، ولا للصفح سبيلاً؛ فإذا ما أُسيء في حقه من أي أحد فإنه يحفظ تلك الإساءة، ولا يكاد ينساها، مهما تقادم العهد عليها.

فتجده يتربص بصاحبه الدوائر، وينتظر منه غرة؛ لينفذ إليه من خلالها، فيروي غليله، ويشفي غيظه.

٢٠ ـ مجاراة السفهاء:

فهناك من إذا ابتلي بسفيه ساقط، لا خلاق له، ولا مروءة فيه ـ أخذ يجاريه في سفهه وقيله وقاله، مما يجعله عرضة لسماع مالا يرضيه من ساقط القول ومرذوله، فيصبح بذلك مساوياً للسفيه؛ إذ نزل إليه وانحط إلى رتبته.

إذا جاريت في خلق دنيئاً ... فأنت ومن تجاريه سواء

قال الأحنف بن قيس: «من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، وَرُبَّ غيظٍ تَجَرَّعْتُهُ مخافةَ ما هو أشدُّ منه»(١).

٢١ ـ قلة الحياء:

فالحياء خلق يبعث على فعل الجميل وترك القبيح، فإذا عري الإنسان منه، وعطل من التحلي به فلا تسل عما سيقترفه من رذائل، ولا تعجب مما سيرتكبه من حماقات؛ فقليل الحياء لا يأبه بدنو

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ١/٢٨٤.

همتـه، ولا يبالي بسفول قدره، ولا يجد ما يبعثه للفضائل، ولا ما يُقْصِره عن الرذائل.

هذا ولقلة الحياء صور عديدة منها:

أ - المجاهرة بالمعاصي عموماً.

ب ـ التدخين ـ خصوصاً في الأماكن العامة ـ:

فالتدخين شر وبلاء بإجماع العقلاء، وهو محرم كما بيّن ذلك العلماء.

ولكن البلية تعظم عندما يتعاطاه شاربه أمام ملأ من الناس، أو في مكان عام، إما بمستشفى، أو طائرة، أو قطار، أو في مكان انتظار أو نحو ذلك.

فكم في مثل هذا العمل من التمادي في القِحَة؟ وكم فيه من قلة المبالاة بالآخرين؟

ثم كيف تطيب نفس هذا المدخن وهو يؤذي من حوله بأنفاسه الكريهة المنتنة؟!.

ثم كيف يستسيغ إلحاق الضرر بغيره؛ فقد يكون مِنْ بين الحاضرين مَنْ هو مصاب بالربو، أو ممن يتأذى برائحة الدخان؟

جـ ـ المماطلة بالدَّين:

فتجد من الناس من يأتي إلى رجل ميسور الحال، فيبدي له حاجته، ويلتمس منه إعانته بتقديم سلفة له إلى وقت قريب.

وما هي إلا أن يظفر بإربه، ثم يتنكر لصاحبه، ويقلب له ظهر المِجَنِّ، فيبدأ بالمماطلة، ويُسَوِّف بالسداد.

وهذا دليل على ضعة النفس، وسوء الخلق، وقلة الحياء.

د ـ المعاكسات الهاتفية:

فهناك من يؤذي بيوت المسلمين بالاتصالات الهاتفية، والتي يبتغي من ورائها أن يظفر بمكالمة غادرة، يستجر بها إحدى المحارم بكلامه المعسول، وبعباراته الرقيقة.

وربما وجد من يجاريه في سفالته وغيِّه، وربما وقع الهاتف في يد بريئة لا تعرف تلك الألاعيب، فاستدرجها هذا الغادر بالحديث، وربما سجلها في جهاز التسجيل ثم جعل تلك المكالمة إدانة لتلك المسكينة، يهددها بها إن لم تستجب لمطالبه.

وهذا الصنيع دليل على رقة الدين، وقلة الحياء، ودنو الهمة، والتمادي في السفالة.

قال الشيخ بكر أبو زيد ـ حفظه الله ـ عن تلك العادة القبيحة: «كنت أظنها مرضاً تخطاه الزمن، وإذا بالشكوى تتوالى من فَعَلات السفهاء في تتبع محارم المسلمين في عقر دورهن، فيستجرونهن بالمكالمة والمعاكسة السافلة.

ومن السفلة من يتصل على البيوت مستغلاً غيبة الراعي؛ ليتخذها فرصة علَّه يجد من يستدرجه إلى سفالته.

وهذا نوع من الخلوة، أو سبيل إليها، وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه البخاري ومسلم ـ: «إياكم والدخولَ على النساء» أي الأجنبيات عنكم.

فهذا وأيم الله حرامٌ حرامٌ، وإثم وجناح، وفاعله حريٌّ

بالعقوبة، فيخشى أن تنزل به عقوبةٌ تلوث وجه كرامته»(١).

٢٢ ـ البخـــل:

فالبخـــل من مســـاوىء الأخـلاق، ومن المخـلات بالـدين والمروءة، وهو مما يجلب الشقاء لصاحبه في الدنيا والآخرة.

والبخيل بعيد من الله، بعيد من خلق الله، بعيد من الجنة، قريب من النار.

والبخيل ضيِّقُ الصدر، صغير النفس، قليل الفرح، كثير الهمِّ والغم، لا يكاد يقضى له حاجة، ولايعان على مطلوب(٢).

فتجد من الناس من يبخل بفضل ماله، مع أن لديه من المال ما يكفيه وذريته آلاف السنين لو عاشوها.

ومن الناس من يبخل بجاهه، فلا يبذله في سبيل الخير من إعانة لمظلومٍ، أو شفاعة حسنة لمستحقها، أو نحو ذلك.

ومن الناس من يبخل بنصحه، فلا ينصح أحداً، بل ربما لو استنصح لبخل بالنصيحة.

هذا وللبخل أبواب كثيرة، والغامض من تلك الأبواب أكثر وأكثر.

٢٣ ـ المنة في العطية ونحوها:

فمن الناس من إذا أعطى عطاءً، أو بذل نصيحة، أو أسدى

---

(١) أدب الهاتف للشيخ د. بكر أبو زيد ص ٣١ ـ ٣٢.

(٢) انظر الوابل الصيب لابن القيم ص ٥١.

معروفاً ـ أتبعه بالمن والأذى، والإدلال على من أحسن إليه.

وذلك الصنيع خلق ساقط، لا يليق بأولي الفضل، ولا يحسن بأهل النبل؛ فالمنة تصدع قناة العزة، فلا يحتملها ذوو المروءات إلا حال ضرورة، ولا سيما مِنَّة تجيء من غير ذي طبع كريم، أو قدر رفيع.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى**﴾ [البقرة، ١٤].

وعن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم.**

قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثلاث مرات.

قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟

قال: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»[1].

قال رجل لِبَنِيْهِ: «إذا اتخذتم عند رجل يداً فانسوها»[2].

وقالوا: «المنة تهدم الصنيعة»[3].

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «لا يتم المعروف إلا بثلاث: بتعجيله، وتصغيره، وستره؛ فإذا أعجله هنّأه، وإذا صغَّره عظَّمه، وإذا ستره تممه»[4].

---

(١) رواه مسلم (١٠٦).

(٢) (٣) (٤) عيون الأخبار ٤/١٧٧.

وقال الشاعر:

أفسدت بالمنِّ ما أسديت من حسنٍ ... ليس الكريم إذا أسدى بمنَّان[1]

ومع أن المنة وتعداد الأيادي ليس من صفات الكرام ـ إلا أن ذلك يحسن ويسوغ في حال المعاتبة والاعتذار.

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «حالان يحسن فيهما ما يقبح في غيرهما، وهما المعاتبة، والاعتذار، فإنه يحسن فيهما تعديدُ الأيادي، وذكرُ الإحسان، وذلك غاية القبح فيما عدا هاتين الحالتين»[2].

٢٤ ـ إخلاف الوعد:

فإخلاف الوعد من الصفات الذميمة، ومن الخصال المرذولة؛ فهو شعبة من شعب النفاق، وآية من آيات المنافقين.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا أُؤتمن خان، وإذا وعد أخلف»[3].

وكرام الناس ينفرون من هذه الخصلة، ويأنفون من الاتصاف بها.

قال المثنى بن حارثة الشيباني: «لأن أموت عطشاً أحبُّ إليَّ من أن أخلف موعداً»[4].

---

(١) عيون الأخبار ٤/١٧٧.

(٢) الأخلاق والسير لابن حزم ص ٧٨.

(٣) رواه البخاري ٣/١٦٢ ومسلم (٥٩) عن أبي هريرة.

(٤) بهجة المجالس ٢/٤٩٤ وتنسب هذه المقولة لعوف بن النعمان الشيباني، انظر الأمثال لأبي عبيد ص ٧١.

وقال بعض الحكماء: «وعدُ الكريمِ نقدٌ، ووعد اللئيم تسويف»(١).

ولقد ابتلي بهذه الخصلة كثير من المسلمين، فما أقل الوفاء بالوعد، وما أكثر الخلف فيه، حتى خُيِّلَ لكثير من المنهزمين، وممن يُحَمِّلون الإسلام خطأ المتسببين إليه ـ أن الخلفَ من صفات المسلمين، وأن الوفاء بالوعد وإنجازه من صفات الكافرين!

حتى إن بعضهم إذا أراد تأكيد الموعد قال: أعطني وعداً إنجليزيًّا!

ومن مظاهر إخلاف الوعد الشائعة بين الناس مايلي:

أ ـ الخلف مع الأولاد:

فكثير من الوالدين إذا أراد إسكات طفله، أو أراد التخلص منه إذا تعلق به عند الخروج من المنزل أو نحو ذلك ـ تجده يَعِدُه بهدية، أو حلوى أو نحوى ذلك، ثم يخلف ما وعد به.

فهذا مما يعود الطفل إخلاف الوعد، فينشأ وقد أَلِفَ هذه الخصلة السيئة.

ب ـ المزاح الثقيل، أو ما يسمى بـ «المقالب»:

فيحصل أن يقوم شخص بدعوة أصحابه في مكان محدد، وفي زمان محدد، وربما كان المكان بعيداً، فيخبرهم بأنه سيحضر لهم الطعام في ذلك المكان والزمان المحددين، مع أنه قد بَيَّتَ النية بالخلف.

---

(١) بهجة المجالس ٢/٤٩٤.

فإذا ما جاءوا لذلك المكان لم يجدوا ما وُعِدوا به، وربما طال بهم الانتظار، فإذا أيسوا عادوا أدراجهم.

فهذا الرجل جمع بصنيعه هذا عدداً من الأعمال القبيحة، فجمع بين الكذب، وقلة الحياء، وإخلاف الوعد، وأذيَّةِ المسلمين.

جـ ـ التأخر عن المواعيد المحددة المرتبطة بأعمال معينة:

فما أكثر وقوع هذا الأمر، وما أقل من يضبط مواعيده، وما أكثر الآثار المترتبة على ذلك؛ فتَأَخُّرُ دقائقَ عن موعد البدء المحدد معناه ضياع دقائق من وقت العمل، وذلك يؤدي إلى نتيجتين: إما الإسراع في العمل وعدم الدقة فيه؛ لتعويض الزمن الفائت، وإما التعدي على أوقات خصصت لواجبات أخرى.

د ـ التأخر في المجيء للمُضِيف:

فكثيراً ما يعد أحد الناس أضيافه بموعد محدد ليأتوه به، ثم يتأخر الأضياف أو بعضهم مدة طويلة عن الموعد المحدد، وقد يكون التأخر بلا عذر، مما يربك المضيف، ويوقعه في الحرج، كما يتسبب في إضاعة الوقت للمضيف ولمن جاءوا في الوقت المحدد.

هـ ـ التأخر في إرجاع الكتب المستعارة:

فيحصل كثيراً أن يأتي أحد لصاحب مكتبة، أو طالب علم لديه مكتبة، فيطلب منه أن يعيره كتاباً، ويعده بأن يرجعه في أقرب وقت.

فإذا ما أخذ الكتاب، وحصل منه على الفائدة التي يرجوها ـ تأخر في إرجاع الكتاب، وماطل في ذلك كثيراً، بل ربما أضاعه، حتى إن صاحب الكتاب ليستحيي من كثرة التودد إليه، والتردد عليه؛ كي يرجع الكتاب.

بل ربما اضطر إلى أن يشتري نسخة أخرى بدلاً من النسخة التي أخذت.

وربما كان ذلك الكتاب جزءاً من عدة أجزاء ولا يمكن شراؤه إلا بشراء الأجزاء كاملة.

و ـ التأخر في سداد الدين:

وقد مر عند الحديث عن قلة الحياء.

ز ـ الخلف في العطاء:

وهذا يقع كثيراً، فتجد من الناس من يعد غيره بهدية، أو عطاء أو نحو ذلك فلا يفي.

وتجد من يَعِدُ غيره بعطاء؛ رجاء خدمة يقوم بها، فإذا حصل على بغيته أخلف موعده، وتناسى صاحبه.

وتجد من يَعِدُ؛ تخلصاً من الإحراج مع أنه قد عزم على عدم الوفاء.

هذه بعض مظاهر الخلف في الوعد التي تنتشر في أوساط الناس، والتي تسود بسببها الفرقة، وتحل القطيعة، وتُفْقَدُ الثقة؛ فإخلاف الوعد من مساوىء الأخلاق، وهو مما يزري بصاحبه.

قال زياد الأعجم:

لله دَرُّكَ من فتىً ... لو كنتَ تفعل ما تقول
لا خير في كذب الجوا ... د وحبذا صدق البخيل[1]

وقال آخر:

وإنْ جُمِعَ الأفاتُ فالبخلُ شَرُّها ... وشرٌّ من البخل المواعيدُ والمطلُ[2]

(١) (٢) بهجة المجالس ٢/٤٩٦.

وقال ابن حازم:

إذا قلت عن شيءٍ نعم فَأَتِمَّه ... فإن نعم دَيْنٌ على الحرِّ واجبُ
وإلا فقل: لا، تسترحْ وتُرِحْ بها ... لئلا يَظُنَّ الناسُ أنك كاذبُ(١)

٢٥ ـ الكـذب:

فالكذب من الأخلاق المرذولة، والصفات القبيحة؛ فهو خصلة من خصال النفاق، وشعبة من شعب الكفر، وهو عنوان سفه العقل، وآية سقوط الهمة، وخبث الطوية.

والكذاب مهين النفس بعيد عن عزتها المحمودة.

قال الماوردي: «والكذب جماعُ كلِّ شرٍّ، وأصل كل ذم؛ لسوء عواقبه، وخبث نتائجه؛ لأنه ينتج النميمةَ، والنميمةُ تنتج البغضاء، والبغضاء تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة.

ولذلك قيل: من قلَّ صدقُه قلَّ صديقُه»(٢).

ولقد انتشر الكذب خصوصاً في هذه الأزمان المتأخرة، فما أكثر من يكذب في علاقاته ومعاملاته، وما أقل من يصدق في ذلك، مع أن نصوص الشرع جاءت حاثةً على الصدق، محذرةً من الكذب.

قال ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ [التوبة، ١١٩].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق

---

(١) ثمرات الأوراق لتقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي ص١٤١.

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٢٦٢.

يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل لَيصدقُ حتى يكتب عند الله صديقاً.

وإياكم والكذبَ؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً»[١].

ومن مظاهر الكذب المنتشرة بين الناس ـ الكذب على الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والكذب لإفساد ذات البين، والكذب لإضحاك السامعين، والكذب في المطالبات والخصومات، والكذب للتخلص من المواقف المحرجة.

ومن مظاهر الكذب ـ أيضاً ـ نقل الأخبار الكاذبة، وحذف بعض الحقيقة، والتوسع في باب المصلحة، والمبالغة في المعاريض، والتَّمَلُّقُ لأرباب الثراء والجاه، والكذب على الأولاد، ونحو ذلك[٢].

٢٦ ـ كثرة المزاح والإسفاف فيه:

فالمزاح يسقط الهيبة، ويُخِلُّ بالمروءة، ويُجَرِّىء السفهاء والأنذال.

قيل في بعض منثور الحكم: «المزاح يأكل الهيبةَ كما تأكل النارُ الحطبَ»[٣].

وقال بعض الحكماء: «من كثر مزاحُه زالت هيبتُه»[٤].

---

(١) رواه البخاري ٧/٩٥ ومسلم (٢٦٠٧) عن عبدالله بن مسعود.
(٢) انظر الكذب مظاهره ـ علاجه للكاتب.
(٣) أدب الدنيا والدين ص ٣١٠.
(٤) أدب الدنيا والدين، ص ٣١٠

وقال ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ: «وقد كره جماعة من العلماء الخوض في المزاح؛ لما فيه من ذميم العاقبة، ومن التوصل إلى الأعراض، واستجلاب الضغائن، وإفساد الإخاء»(١).

وكان يقال: «لكل شيء بدء، وبدء العداوة المزاح».

وكان يقال: «لو كان المزاح فحلاً ما ألقح إلا الشر»(٢).

وقال سعيد بن العاص: «لا تمازح الشريف فيحقد، ولا الدنيء فيجترىء عليك»(٣).

وقال ميمون بن مهران: «إذا كان المزاح أمام الكلام فآخره الشتم واللطام»(٤).

وقال أبو هفان:

مازحْ صديقَك ما أحبَّ مزاحا ... وتوقَّ منه في المزاح جماحا
فلربما مزح الصديقُ بمزحةٍ ... كانت لِبَابِ عداوةٍ مِفْتَاحا(٥)

وقال آخر:

لا تمزحنْ وإذا مزحتَ فلا يكن ... مزحاً تضاف به إلى سوء الأدب
واحذر ممازحةً تعود عداوةً ... إن المزاح على مقدمة الغضب(٦)

وقال آخر:

فإياك إياك المزاحَ فإنه ... يُجَرِّي عليك الطفلَ والدَّنِسَ النذلا
ويذهب ماء الوجه بعد بهائه ... ويورثه من بعد عزته ذلا(٧)

---

(١) (٢) (٣) بهجة المجالس لابن عبدالبر ٢/٥٦٩.
(٤) (٥) (٦) المرجع السابق ٢/٥٧٠، وانظر الآداب الشرعية ٢/٢٢٣.
(٧) بهجة المجالس ٢/٥٧١.

والمقصود أن المزاح لا ينبغي الإكثار منه، ولا الإسفاف فيه.

أما ماعدا ذلك فيحسن؛ لما فيه من إيناس الجليس، وإزالة الوحشة، ونفي الملل والسآمة.

وإنما المزاح في الكلام كالملح في الطعام، إن عدم أو زاد على الحد فهو مذموم[1].

أَفِدْ طبْعَكَ المكدودَ بالجد راحةً يَجِمَّ وعَلِّلْهُ بشيءٍ من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما تعطي الطعام من الملح[2]

٢٧ ـ الفخـر بالنسـب:

فالفخـر بالنسب خلق جاهلي، ذمـه الإسلام، ومقت أهله، وحذَّر من صنيعهم.

والفخـر بالنسب عنـوان سفـه العقـل، وآية دنو الهمة؛ فهل للإنسان الخيرة في اختيار نسبه؟ وهل النسب مما يرفع عند الله؟

إنمـا الفخـر كل الفخـر بتقوى الله ـ عز وجل ـ وبالترقي في مراتب الكمال، ومدارج الفضيلة.

لقد رفع الإسلامُ سلمان فارسٍ كما وضع الكفرُ الشريفَ أبا لهب

فكم من الناس ـ مع بالغ الأسف ـ من يفاخر بنسبه، ويترفع على من سواه، ويعقد الولاء والبراء للنسب، مع أن الله ـ عز وجل ـ يقول في محكم التنزيل: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى**

---

(١) انظر بهجة قلوب الأبرار لابن سعدي ص ٧٠.

(٢) أدب الدنيا والدين، ص ٣١١.

وجعلناكم شعوباً وقبائل﴾ ثم بيّن الحكمة من ذلك فقال: **﴿لتعارفوا﴾** لا لتفاخروا، ثم بيَّن معيار التفاضل بين الناس فقال: **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** [الحجرات، ١٣].

فليس التفاضل بالجنس، أو اللون، أو العرق، وإنما هو بالتقوى.

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ بعد أن تحدث عن العُجْب وذكر شيئاً من ضروبه: «وإن أعجبت بنسبك فهذه أسوأ من كل ما ذكرنا؛ لأن هذا الذي أعجبت به لا فائدة له أصلاً في دنيا ولا آخرة، وانظر هل يدفع عنك جوعةً؟ أو يستر لك عورة؟ أو ينفعك في آخرتك؟.

ثم انظر إلى من يساهمك في نسبك، وربما فيما هو أعلى منك ممن نالته ولادة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ثم ولادة الخلفاء، ثم ولادة الفضلاء من الصحابة والعلماء، ثم ولادة ملوك العجم من الأكاسرة والقياصرة، ثم ولادة التبابعة، وسائر ملوك الإسلام، فتأمل غبراتهم وبقاياهم، ومن يدلي بمثل ما تدلي به من ذلك ـ تَجِدْ أكثرهم أمثال الكلاب خساسةً، وتُلْفِهم في غاية السقوط، والرذالة، والتبذل، والتحلي بالصفات المذمومة، فلا تغتبط بمنزلة هم فيها نظراؤك أو فوقك»[1].

ثم قال ـ رحمه الله ـ: «ثم لعل الآباء الذين تفخر بهم كانوا فساقاً، وشَرَبَةَ خمورٍ، ولاطة، ومُتَعَبِّثِيْنَ، ونوكى[2]، أطلقت الأيام

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم ص ٧٠ ـ ٧١.
(٢) نوكى: جمع أنوك وهو الأحمق فالنوكى الحمقى وزناً ومعنى.

أيديهم بالظلم والجور، فأنتجوا ظلماً وآثاراً قبيحة تُبقي عارهم بذلك الأيام، ويعظم إثمهم والندم عليها يوم الحساب.

فإن كان كذلك فاعلم أن الذي أعجبت به من ذلك داخل في العيب، والخزي، والعار، والشنار، لا في الإعجاب.

وإن أعجبت بولادة الفضلاء إياك فما أخلَّ يدك من فضلهم إن لم تكن أنت فاضلاً، وما أقل غناهم عنك في الدنيا والآخرة إن لم تكن محسناً.

والناس كلهم أولاد آدم الذي خلقه الله بيده، وأسكنه جنته، وأسجد له ملائكته ولكن ما أقل نفعه لهم»(١).

ثم قال: «وإذا فكر العاقل في أن فضل آبائه لا يقربه من ربه ـ تعالى ـ ولا يكسبه وجاهةً لم يَحُزْها هو بسعده أو بفضله في نفسه، ولا مالاً ـ فأي معنى للإعجاب بما لا منفعة فيه؟!.

وهل المعجب بذلك إلا كالمعجب بمال جاره؟ وبجاه غيره؟ وبفرس لغيره سبق كان على رأسه لجامه؟

وكما تقول العامة في أمثالها: كالغبي يُزهى بذكاء أبيه»(٢).

وقال: «وقد كان ابن نوح، وأبو إبراهيم، وأبو لهب عم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقربَ الناس من فضل خلق الله ـ تعالى ـ وممن الشرفُ كله في اتِّباعهم، فما انتفعوا بذلك»(٣).

وقال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «ما رأيت أحداً أخسرَ صفقةً، ولا أظهر حسرةً، ولا أخيب قصداً، ولا أقل رشداً، ولا أحمق شعاراً، ولا

---

(١) (٢) (٣) الأخلاق والسير ص ٧١ ـ ٧٢.

أدنس وثاراً من المفتخر بالآباء الكرام، وأخلاقهم الجسام، مع تعرِّيه عن سلوك أمثالهم، وقصد أشباههم، متوهماً أنهم ارتفعوا بمن قبلهم، وسادوا بمن تقدمهم.

وهيهات أنى يسود المرء على الحقيقة إلا بنفسه، وأنى ينبل في الدارين إلا بكده»[١].

قال أحد الشعراء:

أيها الطالب فخراً بالنسب ... إنما الناس لأمٍّ ولأبْ
هل تراهم خلقوا من فضة؟ ... أو حديدٍ أو نحاسٍ أو ذهب
أو ترى فَضْلَهُمُ في خَلْقِهِمْ ... هل سوى لحمٍ وعظم وعصب؟
إنما الفضل بحلم راجح ... وبأخلاقٍ كرامٍ وأدب
ذاك من فاخر في الناس به ... فاق من فاخر منهم وغلب[٢]

وقال الآخر:

إن لم تكن بفعال نفسك سامياً ... لم يُغْنِ عنك سموٌّ من تسمو به
ليس القديم على الجديد براجعٍ ... إن لم تجده آخذاً بنصيبه[٣]

وقال الآخر:

ليس الكريم بمن يُدَنِّسُ عِرْضَهُ ... ويرى مروءته تكون بمن مضى

(١) روضة العقلاء، ص ٢٣٠.
(٢) روضة العقلاء، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١، وتنسب هذه الأبيات لأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ انظر ديوان الإمام علي جمع نعيم زرزور ص ٢٦.
(٣) روضة العقلاء، ص ٢٣٠.

حتى يَشِيْدَ بناءه ببنائه ويزينُ صالحَ ما أتوه بما أتى[1]

٢٨ ـ قلة المراعاة لأدب المحادثة:

فللمحادثة آداب يحسن مراعاتها والتحلي بها، ويقبح التفريط فيها، والإخلال في شأنها.

والتقصير في هذا الجانب يعد ضرباً من ضروب سوء الخلق.

ومن المظاهر لقلة المراعاة لأدب المحادثة مقاطعة المتحدث، والاستخفاف بحديثه، وتركُ الإصغاءِ إليه، والمبادرةُ إلى تخطئته أو تكذيبه، ورفع اليدين في وجهه، والقيام عنه قبل أن يكمل حديثه.

ومنها الثرثرة، وحب الاستئثار بالحديث، وكثرة امتداح النفس.

ومنها قلة المراعاة لمشاعر الآخرين، ومواجهتهم بما يكرهون، والحديث بما لا يناسب المقام والحال.

ومنها بذاءة اللسان، والتفحش بالقول، واستعمال العبارات المستكرهة صراحةً دون تكنية.

ومنها رفع الصوت بلا داعٍ، والغلظة في الخطاب، والشدة في العتاب.

ومنها التقعير في الكلام، والخوض فيما لا طائل تحته، والكلف في المعارضة والخلاف.

ومنها الجدال والمراء، والخصومة، واللدد[2].

---

(١) روضة العقلاء، ص ٢٣٠.

(٢) انظر: تفصيل ذلك في: أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة للكاتب.

٢٩ ـ قلة المراعاة لأدب المجالس:

ومن مظاهر ذلك دخول المجلس والخروج منه دون إذن، وترك السلام حال الدخول وحال الخروج.

ومنها التصدر للمجالس لمن ليس أهلاً لذلك.

ومنها قلة التفسح في المجالس، والتفريق بين اثنين متجالسين دون إذنهما، والجلوس في مجلس الرجل إذا قام منه وهو يريد الرجوع إليه.

ومنها الجلوس في الطرقات دون أداء حقها، والجلوس على هيئة تشعر بقلة الأدب كالاضطجاع، ورفع الرجل في وجه المتكلم ونحو ذلك.

ومنهـا القيام بمـا ينـافي الـذوق في المجـالس كالتَّجَشُّؤ، والتَّمَخُّط، والتثاؤب، والقهقهة، ونحو ذلك.

ومنها تناجي الجماعة دون الواحد، ومنها التقصير في السنن الواردة في المجلس كتشميت العاطس، والاستغفار في آخره.

ومنها مزاولة المنكرات في المجالس كالغيبة والنميمة والتدخين ونحو ذلك، ومنها مداهنة أهل المجلس وترك الإنكار عليهم[1].

٣٠ ـ سوء التعامل مع الوالدين:[2]

وهذا الأمر يأخذ صوراً كثيرة، فمن ذلك نهرهما، وزجرهما، ورفع الصوت عليهما، والتأفف والتضجر من أوامرهما.

---

(١) انظر المرجع السابق.

(٢) انظر عقوق الوالدين للكاتب.

ومن ذلك العبوس وتقطيب الجبين أمامهما.

ومن ذلك احتقارهما، وتسفيه أحلامهما، ووصفهما بالجهل، والحمق، والغباء.

ومن ذلك الأمر عليهما، وترك مساعدتهما.

ومن ذلك ذمُّهما، وعيبهما أمام الناس، فمن الناس مَنْ إذا أخفق في دراسته أو نحو ذلك ألقى باللائمة والتبعة على والديه، وزعم أنهما سبب إخفاقه؛ لأنهما لم يحسنا تربيته.

ومن ذلك سبُّهما، وشتمهما إما مباشرة وإما بالتسبب.

ومن ذلك البراءة منهما، والاستحياء من الانتسابِ إليهما، وطردُهما من المنزل، أو الذهابُ بهما إلى دور العجزة.

وأقبح ما في ذلك قتلهما، والتخلص منهما؛ رغبة في الميراث أو نحو ذلك ـ عياذاً بالله ـ.

٣١ ـ سوء العشرة مع الزوجة:

فهناك من يتعامل مع سائر الناس بأدب، ورقة، وأريحية.

فتراه في المجالس بشوشاً، حسن الخلق، ينتقي من الكلام أطايبه، ومن الحديث أعذبه.

فإذا ما دخل المنزل تبدلت حاله، وذهبت وداعته، وتولت سماحته، وحلت غلظته، وبذاءته، وفظاظته، فانقلب أسداً هصوراً على زوجته الضعيفة المسكينة.

فتراه يسيء الأدب مع زوجته، ويحملها مسؤولية كل شيء،

ويغلظ في عتابها عند أدنى خطأ، ويهددها بالطلاق عند كل صغيرة وكبيرة، وربما قصر عليها في النفقة الواجبة.

ولا ريب أن هذا الصنيع دليل على ضعة النفس، وحقارة الشأن، وضعف الإيمان.

وإلا فإن الحازم العاقل ذا الدين والمروءة يَتَوَدَّدُ لأهله، ويَتَعَطَّفُ عليهم، ويحسن معاشرتهم.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً، وخياركم خياركم لنسائهم**»[1].

٣٢ ـ سوء الخلق من بعض الزوجات:

ففي مقابل ما مضى نجد أن بعض الزوجات لا تحسن التبعل لزوجها، ولا تقوم بحقوقه كما أراد الله منها.

بل تراها تسيء الأدب معه، وترفع صوتها عليه، وتثقل كاهله بكثرة الطلبات، وتستنزف ماله بكثرة الإغراق بالكماليات.

بل ربما عوَّقته وخذَّلته عن بره بوالديه، وأعانته على القطيعة والعقوق.

٣٣ ـ سوء معاملة الخدم والعمال:

فما أكثر من يسيء الأدب مع الخدم والعمال، فتراه يحتقرهم،

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢٥٠ ـ ٤٧٢ والترمذي (١١٦٢) وابن حبان ٩/ ٤٨٣ رقم (٤١٧٦) والبغوي في شرح السنة ٩/ ١٨٠ رقم (٢٣٤١) كلهم عن أبي هريرة وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه أحمد شاكر في شرحه للمسند ١٩/ ١٢٨ رقم (١٠١١٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٤).

وينتقصهم، ولا يراهم إلا هملاً مضاعاً، أو لقىً مزدرى، فلا يسلِّم عليهم إذا مر بهم، ولا يرد عليهم السلام إذا سلَّموا، بل ربما مد أحد العمال يده؛ ليسلِّم عليه، فيشيح بوجهه عنه، ويتركه ماداً يده بلا رد.

فكم في هذا العمل من كسر لنفس هذا المسكين.

ومن الناس من يُحَمِّلُهم ما لا يطيقون، ويؤخر رواتبهم لمدة طويلة، ويحسم من رواتبهم عند أدنى هفوة أو زلة.

وهذا الأمر لا يصدر من ذي خلق ودين ومروءة.

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن التعسف، وسوء الملكة لمن خَوَّلَكَ الله ـ تعالى ـ أمره من رقيق أو رعية يدلان على خساسة النفس، ودناءة الهمة، وضعف العقل؛ لأن العاقل الرفيع النفس، العالي الهمة إنما يغلب أكفاءه في القوة، ونظراءه في المنعة.

وأما الاستطالة على من لا يمكنه المعارضة فسقوط في الطبع، ورذالة في النفس والخلق، وعجز ومهانة.

ومن فعل ذلك فهو بمنزلة من يتبجح بقتل جُرذ، أو بقتل برغوث، أو بفرك قملة، وحسبك بهذا ضعةً وخساسة»[1].

٣٤ ـ سوء الأدب من بعض الخدم والعمال:

فكما أن هناك تقصيراً في حق الخدم والعمال ـ كما مر ذكره ـ فكذلك هناك تقصير من بعض الخدم والعمال.

فمنهم من إذا أكرمه رئيسه أو كفيله، فَرَقَّ لحاله، وأحسن إليه،

(١) الأخلاق والسير، ص ٧٣.

وسهل مهمته، ولم يكلفه ما لا يطيق ـ قابل الإحسان بالإساءة، والمعروف بالجحود والنكران.

فتجده يتمرد على رئيسه أو كفيله، فيخل بالأمانة، ويقصر في العمل.

ولو أن كلا الطرفين راقب الله ـ جل وعلا ـ وحرص على أداء ماله وما عليه ـ لاستراحا جميعاً، ولقَلَّت المشكلات بينهما، ولنزلت الخيرات والبركات في ساحتهما.

٣٥ ـ التقصير في حقوق الإخوان:

فالإخوان لهم حقوق كثيرة، يحسن بالمرء مراعاتها والقيام بها، ويقبح به التفريط فيها والتهاون في أدائها.

ومع ذلك فكثير من الناس لا يبالي بتلك الحقوق، ولا يبالي في التقصير فيها.

ومن مظاهر التقصير في هذا الشأن مايلي:

أ ـ قلة تعاهد الإخوان:

فمن الناس من لا يتعاهد إخوانه، ولا يسأل عن أحوالهم، ولا يحرص على زيارتهم وصلتهم، ولا يسعى في تجديد المودة وتقوية العلاقة معهم.

وهذا لا يليق بالعاقل.

قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «الواجب على العاقل إذا رزقه الله ودَّ امرىء مسلم صحيح الوداد محافظٍ عليه ـ أن يتمسك به، ثم يوطن نفسه على صلته به إن صرمه، وعلى الإقبال عليه إن صدَّ عنه، وعلى

البذل له إن حرمه، وعلى الدنو منه إن باعده»[١].

ب ـ التنكر وقلة الوفاء:

فمن الناس من لا يعرف إخوانه إلا في الرخاء، وفي حال اليسار.

فإذا وقع أحد إخوانه في شدة أو ضائقة، واحتاج لمعروفه ومساعدته ـ تنكر له، وخذله، ونسي ما كان بينهما من مودة.

ويصدق على هؤلاء قول القائل:

وإن من الإخوانِ إخوانَ كشرةٍ ... وإخوانَ حيَّاك الإلهُ ومرحبا
وإخوان كيف الحالُ والأهلُ كلُّه ... وذلك لا يسوي نقيراً مُتَرَّبا
جواد إذا استغنيت عنه بماله ... يقول: إليَّ القرض والقرضَ فاطلبا
وإن أنت حاولت الذي خَلْفَ ظهره ... وجدتَ الثريا منه في البعد أقربا[٢]

ومن التنكر وقلة الوفاء ما تجده عند بعض الناس؛ فما أن ينال عرضاً من أعراض الدنيا ـ كمال، أو جاه، أو منصب ـ إلا ويتنكر لأصحابه القدامى، وينساهم، أو يتناساهم.

وما هذا من أخلاق الكرام.

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن

ج ـ إيذاؤهم في السفر:

فكثير من الناس لا تظهر خلائقه، ولا تتميز طرائقه إلا في السفر؛ فالسفر يسفر عن أخلاق الرجال.

---

(١) روضة العقلاء ص ١٠٣.

(٢) روضة العقلاء ص ١٠٥.

فإذا سافر مع أصحابه آذاهم، وأكثر الخلاف معهم، وسعى فيما يكدر عليهم، ويعكر صفوهم.

ومن الناس من لا يتكلم ولا يقترح، وربما إذا استشير لم يشر، بل يترك الأمر لصحبه، فإذا أصابوا سكت، وإذا اجتهدوا في أمر ما فأخطأوا ـ كأن يضلوا الطريق أو نحو ذلك ـ أمطر عليهم وابلاً من اللوم والتقريع، وأصبح يكرر من أمثاله قوله:

لو فعلتم كذا وكذا لكان أنفع وأجدى، ولو أنكم سلكتم الطريق الفلاني لما حصل ما حصل، وهكذا...

٣٦ ـ سوء الأدب مع الجيران:

فالجار له حقٌّ عظيم، ومكانة عالية، وقد بيَّن الله في محكم تنزيله عِظَمَ حقِّ الجار، وكذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

قال ـ تعالى ـ: **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب﴾** [النساء: ٣٦].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثُه»**.(١)

ومع عظم تلك المكانة للجار في الإسلام ـ إلا أن هناك تفريطاً كبيراً يقع في هذا الجانب؛ ذلك أن كثيراً من الناس لا يرعى حق الجار، ولا يقدره قدره، بل يسيء إليه، ويؤذيه بأنواع من الأذى.

---

(١) رواه البخاري ٧/٧٨ ومسلم (٦٢٤).

فمن الناس من لا يعرف جاره الملاصق لبابه، وربما دامت الجيرة سنوات عديدة وهم لم يتعارفوا.

ومن النـاس من يضايق جيرانه بإلقاء الزبل أمام أبوابهم، أو بإيقاف سيارته بمحاذاة باب الجيران مما يشق معه دخولهم إلى المنزل وخروجهم منه.

ومن الناس من يريق الماء الكثير أمام بيت الجيران.

ومنهم يؤذيهم بالروائح الكريهة، والمياه النجسة التي تنبعث من المجاري.

ومع ذلك لا يحاول إصلاحها ولا تعاهدها.

ومنهم من يؤذي جيرانه بالجلبة، ورفع الأصوات، وإزعاجهم وقت راحتهم.

ومنهم من يقوم أبناؤه بإثارة المشكلات مع أبناء الجيران.

ومع ذلك لا يكف أذاهم عن الجيران، بل ربما دافع عنهم.

وأقبح ما في ذلك تتبع عورات الجار والنظر إلى محارمه عبر سطح المنزل، أو عبر النوافذ المطلة عليه.

فذلك العمل يعد من أقبح الخصال وأسوئها، والعرب كانت تأنف هذه الخصلة، وتفاخر بمحاماتها عن الجار ورعايتها لحقه.

قال مسكين الدارمي:

ناري ونـارُ الـجـارِ واحـدةٌ ... وإلـيه قبـلي تنـزل القِـدْرُ
ما ضرَّ جارٌ لي أجـاوره ... ألا يكـون لبـيتـه سـتـرُ[1]

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٣٢.

بل إن أهل الجاهلية يترفعون عن النظر إلى محارم الجيران، ويرون ذلك الترفع من المحامد التي يفاخرون بها.

قال عنترة:

وأَغضُّ طرفي ما بدت لي جارتي   حتى يواريَ جارتي مأواها[1]

هذا ما تيسر تقييده من مظاهر سوء الخلق.

---

(١) ديوان عنترة ص ٧٦.

الفصل الثالث

أسباب سوء الخلق

سوء الخلق كغيره من الأدواء؛ فله أسباب تجلبه، وبواعث تحركه.

فمن ذلك مايلي :

١ ـ طبيعة الإنسان:

فهناك من الناس من جبل على القِحَةَ، والبذاءة، وسوء الخلق، فتغلب عليه هذه الطبيعة، وتؤثر فيه، وتوجهه إلى مساوىء الأخلاق، وتصرفه عن محاسنها.

خصوصاً إذا استرسل مع طبيعته، ولم يَسْعَ إلى إصلاح نفسه.

٢ ـ سوء التربية المنزلية:

فالتربية المنزلية لها دور عظيم في توجيه الأولاد سلباً أو إيجاباً؛ فالبيت هو المدرسة الأولى للأولاد، والولد قبل أن تربيه المدرسة والمجتمع يربيه البيت والأسرة.

والولد مدين لوالديه في سلوكه المستقيم، كما أن والديه مسؤولان إلى حد كبير عن فساده وانحرافه.

فإذا تربى الولد في المتزل على مساوىء الأخلاق، وسِفْسَاف الأمور، وتربى على الميوعة، والترف ـ نشأ ساقط الهمة، قليل

المروءة؛ فهذه التربية تقضي على شجاعته، وتقتل استقامته ومروءته.[(١)]

أضف إلى ذلك أن الأولاد يرثون طباع والديهم كما يرثون أشكالهم؛ ولذلك قيل: إذا أردت ولداً صحيحاً فتخير له آباء أصحاء أقوياء.

ويقول الشاعر العربي في وصف ابنه:

أعرف منه قِلَّةَ النعاسي   وخفةً في رأسه من راسي

فإذا كان الوالد سيء الخلق، عديم المروءة ـ فإن ذلك الأثر سيلحق بالأبناء في الغالب[(٢)].

٣ ـ البيئة والمجتمع:

فلهذين الأمرين أهمية كبرى في حسن الخلق وسوئه؛ فإذا نشأ المرء في بيئة صالحة، من بيت طيب، ومدرسة تُعنى بدين الطلاب وأخلاقهم، وكان في مجتمع تشيع فيه الفضيلة ومحاسن الأخلاق ـ نبت خير منبت، وتربى خير تربية، وإلا فما أحراه أن يكون سافل القدر شريراً لا خير فيه.

قال ـ تعالى ـ: **﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً﴾** [الأعراف، ٥٨].

---

(١) انظر التقصير في تربية الأولاد للكاتب.

(٢) انظر الأخلاق لأحمد أمين ص ٤٨ ـ ٤٩.

٤ ـ الظلم:

فالظلم يحمل صاحبه على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضى، ويرضى في موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع[١].

٥ ـ الشهوة:

فهي تحمل على الحرص، والشح، والبخل، وعدم العفة، والنهمة، والجشع والذل، والدناءات[٢].

رُبَّ مستورٍ سَبَتْه شهوةٌ ... فَتَعَرَّى ستره فانهتكا
صاحبُ الشهوةِ عبدٌ فإذا ... غلب الشهوةَ أضحى ملكا[٣]

ثم إنه سهل على الإنسان أن يدرك معنى الفضيلة في صورة مجملة، بل سهل عليه أن يتعرف ما هي الفضائل بتفصيل.

وإنما العسر في أخذ النفس بها، والسير في معاملة الناس على قانوها، وعسر العمل على الفضيلة مع تصور مفهومها، والشعور بحسن أثرها ـ يجيء من ناحية الشهوات التي قد تطغى فتنطمس على

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم ٢/٢٩٥.
(٢) انظر مدارج السالكين ٢/٢٩٥.
(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم ص ٤٨١.

البصائر، وتكاد تحول معرفتها للخير إلى جهالة عمياء.[١]

٦ ـ الغضب:

فهو يحمل على الكبر، والحقد، والحسد، والعدوان، والسفه[٢].

وهذه الأوصاف تتنافى مع حسن الخلق.

٧ ـ الجهل:

فالجهل يورد صاحبه المهالك، وينزع به إلى الشرور والبلايا.

والجاهل عدو لنفسه، يسعى في دمارها من حيث لا يشعر.

ولهذا قيل:

لا يبلغ الأعداء من جاهل كمبلغ الجاهل من نفسه

فالجهل بعواقب الأمور، وبمحاسن الأخلاق ومساوئها ـ يؤدي إلى فساد عريض، وشر مستطير، ويحمل صاحبه على ارتكاب مالا ينبغي.

٨ ـ الولاية:

فالولاية قد تحدث في الأخلاق تغيراً، وعلى الخلطاء تنكراً، إما من لؤم طبع، وإما من ضيق صدر؛ ولهذا قيل: «من تاه في ولايته ذلّ في عزله»[٣].

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ١/١٢٤.

(٢) انظر مدارج السالكين ٢/٢٩٥.

(٣) أدب الدنيا والدين، ص ٢٤٤.

وقال سالم بن قتيبة: «ما تكبر في ولايته إلا من كبرت عنه، ولا تواضع فيها إلا من كبر عنها». [1]

وقد كان للشافعي صديق تولى إمرة بعض البلاد، فتغيرت عاداته عما كانت عليه، فكتب إليه الشافعي يقول:

اذْهَبْ فَوِدُّكَ من فؤادي طالقٌ   أبداً وليس طلاقَ ذاتِ البينِ
فإذا ارعويت فإنها تطليقةٌ   ويدوم وِدُّك لي على ثنتين
وإذا رجعتَ شفعتُها بمثالها   فتكون تطليقين في حيضين
وإذا الثلاثُ أَتَتْك مني بتةً   لم تُغْنِ عنك ولايةُ السَيْبَيْنِ [2]

قال يحيى بن الحكم: «والله لقد ولي الحجاج، وما عربي أحسن أدباً منه، فطالت ولايته، فكان لا يسمع إلا ما يحب، فمات وإنه لأحمق سيىء الأدب» [3].

٩ ـ العـــزل:

فكما أن الولاية تحدث في الأخلاق تغيراً فكذلك العزل؛ فقد يسوء به الخلق، ويضيق به الصدر، إما لشدة أسف، أو لقلة صبر [4].

ولهذا فمن مقومات صاحب المروءة ألا تطيش به الولاية في زهو، ولا ينزل به العزل في حسرة.

---

(١) بهجة المجالس ص ٢/٤٤٧.
(٢) ديوان الشافعي، ص ١٣٣ تحقيق خفاجي.
(٣) العزلة للخطابي ص ٢٣٤.
(٤) أدب الدنيا والدين، ص ٢٤٤.

١٠ ـ الغنـــى:

فقد تتغير به أخلاق اللئيم بطراً، وتسوء طرائقُه أشراً، وقد قيل: من نال استطال، وقال بعضهم:

فإنْ تكنِ الدنيا أنالَتْكَ ثروةً … فأصبحت ذا يسرٍ وقد كنتَ ذا عسرِ
لقد كَشَفَ الإثراءُ منك خلائقاً … من اللؤم كانت تحت ثوبٍ من الفقر[1]

وقال أحمد بن إبراهيم يخاطب بعض أهله:

أظُنُّكَ أطغاك الغنى فنسيتني … ونفسُك والدنيا الدَّنيَّةُ قد تُنسي
فإن كنت تعلو عند نفسِك بالغنى … فإني سيُعليني عليك غنى نفسي[2]

١١ ـ الشهرة وبُعْدُ الصِّيت:

فهناك من إذا ذاعت شهرته، وبَعُدَ صيته إما بسبب علمه، أو ماله، أو نحو ذلك ـ تغيرت أحواله، وتبدلت أخلاقه وطباعه، فازدرى من حوله، وتنكر لمن كان معه في بداية طريقه.

قال البارودي:

وكذا اللئيمُ إذا أصاب كرامة … عادى الصديق ومال بالإخوان[3]

١٢ ـ كثرة الهموم:

التي تُذْهِل اللب، وتشغل القلب، فلا تتبع الاحتمال، ولا

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢٤٤.
(٢) أقوال مأثورة ص ١٥٩ عن الأمالي ٢/٢٩٨.
(٣) ديوان البارودي ٤/٥٣

تقوى على صبر، وقد قيل: الهم كالسم[1].

١٣ ـ الأمراض:

التي يتغير بها الطبع، كما يتغير بها الجسم، فلا تبقى الأخلاق على اعتدال، ولا يقدر معها على احتمال[2]، قال المتنبي:

آلةُ العيش صحةٌ وشباب ... فإذا ولَّيا عن المرء ولَّى
وإذا الشيخُ قال: أفٍّ فما ملْـ ... لَ حياةً وإنما الضعفَ ملَّا[3]

١٤ ـ كبر السن:

فلذلك تأثيره على الجسم والنفس معا، فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من أثقال ـ فكذلك تعجز النفس عن أثقال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الهوى، والصبر على الأذى.

١٥ ـ ضيق العطن:

فهناك من الناس مَنْ هو ضَيِّقُ العطن، لا يريد من أحد أن يخطىء، ولا يتحمل أدنى إساءة أو خطأ، فتجد أن نفسه تضيق عند أدنى زلة أو هفوة.

١٦ ـ الغفلة عن عيوب النفس:

فكثيراً ما نغفل عن عيوب أنفسنا، ونتعامى عن معايبنا ونقائصنا، وقليلاً ما نتفقَّد أحوالنا، وننظر في مواطن الخلل فينا.

---

(١) (٢) انظر أدب الدنيا والدين، ص ٢٤٥.

(٣) ديوان المتنبي بشرح العكبري ٣/ ١٣٠.

بل كثيراً ما نحسن الظن بأنفسنا؛ فنزكيها بالأقوال لا بالأفعال، ونَدَّعي لها الكمالات، ونبرِّؤها من النقائص.

فإذا سمعنا بخلق حسن نسبناه إلى أنفسنا، وكأننا أحق الناس به وأهلُه.

وإذا سمعنا بخلق سيىء عزوناه إلى غيرنا، وخُيِّل إلينا أننا بمنجى منه ومنأى عنه.

فهذا المسلك لا يحسن بذوي المروءات، ومتطلبي الكمالات؛ فهذا مما يورث الإعجاب بالنفس، والرضا بما هي عليه من تقصير، وتركَ السعي في علاجها وإصلاحها.

وهذا عين الخطأ، وعنوان الغفلة والجهل؛ فإصلاح النفس، والترقي بها قدماً في درج المكارم ـ لا يَتأتَّى بتجاهل العيوب، ولا بالغفلة عن تفقد النفس.

قال ابن المقفع: «من أشد عيوب الإنسان خفاءُ عيوبِه عليه؛ فإن من خفي عليه عيبُه خفيت عليه محاسنُ غيره.

ومن خفي عليه عيبُ نفسه، ومحاسنُ غيره ـ فلن يقلع عن عيبه الذي لا يعرف، ولن ينال محاسن غيره التي لا يبصر أبداً». [1]

وقال محمود الوراق:

أَتَمُّ النـاسِ أعـرفُهم بنقصـهْ وأَقْمَعُهم لشهـوتـه وحـرصِـهْ [2]

---

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ٨٤.

(٢) أقوال مأثورة ص ٥١٤.

وقال الماوردي:

«هذِّبْ أيها الإنسان نَفْسَكَ بافتكار عيوبك؛ فإنَّ من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ». [1]

١٧ ـ اليأس من إصلاح النفس:

فهناك من يعرف من نفسه سوء الخلق، فيحاول إصلاح نفسه مرة إثر أخرى، فإذا ما رأى منها نفوراً أو جماحاً أيس من إصلاحها، وتَرَكَ مجاهدتها، وظن أن سوءَ الخلقِ ضربةٌ لازب لا تزول، ووصمة عار لا تنمحي.

١٨ ـ دنو الهمة:

فمن دنت همته، وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل، فالنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار[2].

قال الإمام الشوكاني ـ رحمه الله ـ:

قَبَّحَ الله هِمةً تتسامى عن كبار الأقدار دون الصغار
هي أهل لما عراها من الذلِّ وما مسها من الإحتقار[3]

١٩ ـ التقصير في أداء الحقوق:

فهذا الأمر يشعر المرء بوخز الضمير، ويقوده إلى التماس

(١) أدب الدنيا والدين ص ٣٥٨.

(٢) انظر الفوائد ص ٢١١ و ٢٦٦.

(٣) ديوان الشوكاني أسلاك الجوهر، ص ١٩٥.

المسوغات والمعاذير، تارة بالكذب والتملق، وتارة بإلقاء اللائمة والتبعة على الآخرين وهكذا..

فإذا ألف هذا الأمر واستساغه ساء خلقه، وقل حياؤه.

٢٠ ـ قلة التناصح والتواصي بحسن الخلق:

فهذا مما يقود إلى التمادي بسوء الخلق وإلفه، وترك المحاولة في اكتساب حسن الخلق والتحلي به.

٢١ ـ التكبر عن قبول النصيحة الهادفة والنقد البناء:

فقد توجد النصيحة الهادفة والنقد البناء، وقد تصدر وتبذل من ناصح أمين وناقد بصير.

ولكن قد لا تجد أفئدة مصغية، ولا آذاناً مصيخة، بل قد يتكبر المنصوح، ويتعاظم في نفسه، ويستنكف من قبول النصيحة، فيستمر على خطئه، ويعز علاجه واستصلاحه.

٢٢ ـ قلة التفكير في أمر الآخرة:

وما أعده الله ـ جل وعلا ـ من عظيم الثواب لمن حسن خلقه.

ولهذا كان من وصف الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أنهم يكثرون من ذكر الآخرة.

قال ـ تعالى ـ عنهم: **إن أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار﴾** [ص، ٤٦].

٢٣ ـ مصاحبة الأشرار:

فللصحبة أبلغ الأثر في سلوك المرء، فالصاحب ساحب، والطبع استراق، فمن جالس الأشرار وعاشرهم فلا بد أن يتأثر بهم،

ويقبس من أخلاقهم؛ فمجالستهم تنساق بصاحبها إلى الحضيض، فكلما همَّ بالنهوض والتحلي بمكارم الأخلاق، والتخلي عن مساوئها ـ عَوَّقُوهُ، وثنوه، فعاد إلى غَيِّه، واستمر على جهله وسفهه.

٢٤ ـ قلة الحياء:

فقلة الحياء مظهر من مظاهر سوء الخلق، وهي في الوقت نفسه سبب من أسباب سوء الخلق؛ ذلك أن الحياء خصلة حميدة، تبعث على فعل الجميل وترك القبيح، فإذا قل حياء المرء لم يعد يبالي بسفول قدره، وسوء خلقه، ولم يجد ما يبعثه للنهوض إلى اكتساب الفضائل، ولا ما يرفعه عما هو مستغرق فيه من الرذائل.

يعيش المرءُ ما استحيا بخيرٍ ... ويبقى العودُ ما بقي اللحاءُ
إذا لم تخش عاقبةَ الليالي ... ولم تستحي فاصنع ما تشاءُ

٢٥ ـ الطمع والجشع:

فهما من موجبات الذلة والحقارة، ومن أسباب سقوط الجاه والمنزلة؛ فحب المال هو الذي ينزع من فؤاد الرجل الرأفة، ويجعل مكانها القسوة والفظاظة.

وإذا غلب طمع أو جشع على قلب ـ فإنه يستشعر ذلةً، ويتدثر صغاراً، وتعلوه مهانةٌ، وتكسوه حقارةٌ.

٢٦ ـ وجماع ذلك كله ـ ضعف الإيمان:

ذلك أن الإيمان جماع كل خير، فإذا ما ضعف أو فقد، فإن صاحبه لن يبالي بالمكرمات، ولن يأنف من النزول في حضيض الدركات.

فهذه بعض الأسباب الحاملة على سوء الخلق.

الباب الثاني

علاج سوء الخلق

وتحته تمهيد وثلاثة فصول:

تمهيد: هل يمكن تغيير الأخلاق أو لا؟

الفصل الأول: حسن الخلق وفضائله

وتحته مبحثان:

المبحث الأول: تعريف حسن الخلق

المبحث الثاني: فضائل حسن الخلق

الفصل الثاني: أسباب اكتساب حسن الخلق

الفصل الثالث: أمور تتعلق بالأخلاق

وتحته مبحثان:

المبحث الأول: بين المداراة والمداهنة

المبحث الثاني: مقتطفات من أخلاق النبـــوة

تمهيـــد

هل يمكن تغيير الأخلاق أو لا؟

وبعد أن استبانت لنا بعض المعالم لسوء الخلق يحسن الوقوف ههنا حول سؤال يرد كثيراً مفاده: هل يمكن تغيير الأخلاق أم لا؟ .

والجواب عن ذلك قد اختلف فيه؛ فهناك من يرى أن الأخلاق ثابتة في الإنسان لا يمكن أن تتغير؛ لأنها غرائز فُطِر عليها، وطبائعُ جبل على التحلي بها؛ فلا يمكنه تغييرها، ولا يُتَصَور فكاكه عنها.

وهناك من يرى أن تغيير الأخلاق وارد ممكن؛ فليس متعذراً ولا مستحيلاً، خلافاً لمن رأى غير ذلك.

والرأي الثاني هو الصواب المقطوع فيه؛ ذلك أن الأخلاق على ضربين، فمنها ماهو غريزي فطري جبلي، ومنها ما هو اكتسابي يأتي بالدربة، والممارسة، والرياضة، والمجاهدة.

ولو كانت الأخلاق لا تتغير لبطلت الوصايا، والمواعظ، والتأديبات.

بل كيف ينكر هذا وتغيير خلق الحيوان البهيم ممكن؟! إذ أن البازي ينقل من الاستيحاش إلى الأَنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك عن التخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد.

وكل ذلك تغيير في الأخلاق.

فإذا كان هو الشأن مع الحيوان البهيم فأجدر بالإنسان أن يتغير خلقه، ويتبدل طبعه إلى حد الاعتدال، وذلك إن أخذ برياضة نفسه، وسياستها، وحملها على المكارم(١).

وهذا الأمر هو الذي تسنده أدلة الشرع والواقع.

أما أدلة الشرع فكثيرة جدًّا، فهي تحث على التحلي بالفضائل، والتخلي من الرذائل.

ولو كان ذلك غير ممكن لما أُمِر به.

قال ـ تعالى ـ: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ [الأعلى، ١٤].

وقال: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ [الشمس، ٩].

ففي هاتين الآيتين دليل على أن الأخلاق تتغير، وأن الطباع تتبدل؛ ذلك أن حسن الخلق من الفلاح، والفلاح يُنال بالتزكية.

وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتَّحَلُّم، ومن يتحرَّ الخير يعطه، ومن يتوقَّ الشر يوقه**»(٢).

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٣/٥٥ ـ ٥٦ وجوامع الآداب في أخلاق الأنجاب للقاسمي ص ٤.

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخه ٩/١٢٧.

قال المناوي في فيض القدير ٢/٥٧٠: «قال الحافظ العراقي: سنده ضعيف. انتهى.

ولم يبين وجه ضعفه؛ لأن فيه إسماعيل بن مجالد، وليس بمحمود».

ورمز لضعفه السيوطي في الجامع الصغير كما في فيض القدير، وقال الألباني في الصحيحة (٣٤٢): «إسناده حسن، أو قريب من الحسن».

ففي هذا الحديث دليل على أن الأخلاق قابلة للتغيير؛ ذلك أن الحلم من الأخلاق بل هو سيدها، وهو مع ذلك ينال ويكتسب بالتَّحَلُّم، والمجاهدة، وحمل النفس على ذلك.

لعمرك إن الحلم زينٌ لأهله   وما الحلم إلا عادةٌ وتَحلُّمُ(١)

أما دلالة الواقع فنرى، ونسمع أن أناساً يتَّصفون بالشَّرَّة، والنزق، وسوء الخلق.

= وأخرجه الطبراني في الكبير ١٩/٣٩٥ رقم (٩٢٩) من حديث معاوية ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «يا أيها الناس، إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما يخشى الله من عباده العلماء».
قال الهيثمي في المجمع ١/١٢٨: «فيه راوٍ لم يُسَمَّ، وعتبة ابن أبي حكيم وثقه أبو حاتم، وأبو زرعة، وابن حبان، وضعفه جماعة».
وقال المناوي في فيض القدير ٢/٥٧٠: «قال ابن حجر: إسناده حسن؛ لأن فيه مبهماً، اعتضد لمجيئه من وجه آخر.
وروى البزار نحواً من حديث ابن مسعود موقوفاً، ورواه أبو نعيم مرفوعاً».
وأخرجه الطبراني في الأوسط ٣/٣٢٠ رقم (٢٦٨٤) وأبو نعيم في الحلية ٥/١٧٤، والخطيب في تاريخه ٥/٢٠١ من حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشرَّ يوقه.
ثلاث من كنَّ فيه لم يسكن الدرجات العلا ـ ولا أقول لكم الجنة ـ من تَكَهَّنَ، أو استقسم، أو ردَّه من سفر تطير».
وقال الطبراني: «لم يروِ هذا الحديث عن سفيان إلا محمد بن الحسن».
وقال أبو نعيم: «غريب من حديث الثوري عن عبدالملك تفرد به محمد ابن الحسن».
وقال الهيثمي في المجمع ١/١٢٨: «فيه الحسن بن أبي يزيد، وهو كذاب».

(١) أقوال مأثورة ص ٤٤٠.

فإذا ما راض الـواحـدُ منهم نفسـه، وساسها، وجاهدها، وأخذ بالأسباب المعينة على محاسن الأخلاق ـ تبدلت طباعه، وحسنت أخلاقه.

وخير دليل على ذلك ما كان من أمر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قبل البعثة، فلقد كانوا كسائر كثير من العرب ممن يتصفون بالشدة، والقسوة، والغلظة.

فلمـا دخلوا في الإسلام، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ـ رقَّتْ طباعهم، وحسنت أخلاقهم.

بل إنهم أصبحـوا مثالاً يحتذى، ونهجاً يقتفى، في الإيثار، والسماحة، والكرم، والحلم، ونحو ذلك من مكارم الأخلاق.

وبعد أن تبين أن الأخلاق قابلة للتغيير نصل إلى مربط الفرس، وبيت القصيد، ألا وهو علاج سوء الخلق؛ ذلك أن غالبية الناس لا يخفى عليهم سوء الخلق، ولا يجهلون ضرره وقبحـه، بل يعلمون ذلك ويتمنون الخلاص منه إن كانوا متصفين به.

وإنمـا الذي يحتاجه أغلب الناس هو كيفية التخلي من سوء الخلق، والتحلي بحسن الخلق.

وهذا ما سيتبين ـ إن شاء الله ـ من خلال الصفحات التالية عند الحـديث عن حسن الخلق من حيث تعـريفُـه، وفضائلُه، وأسبابُ اكتسابِه، والسبل المعينة على ذلك.

فالأشياء تتميز بضدها، والضد يظهر حسنه الضد.

الفصل الأول

حسن الخلق وفضائله

المبحث الأول: تعريف حسن الخلق

تعريف كلمة «حسن»:

قال ابن منظور: «الحسن ضد القبح ونقيضه»[١].

وقال عن الأزهري: «الحسن نعت لما حسن.

حَسُنَ، وحَسَن يحسن حسناً فيهما فهو حاسن وحسن»[٢].

وقال عن الجوهري: «والجمع محاسن على غير قياس كأنه جمع محسن»[٣].

وقال: «والمحاسن في الأعمال ضد المساوىء»[٤].

تعريف حسن الخلق:

عُرِّفَ حسن الخلق بتعريفات عديدة متقاربة، ومنها مايلي:

١ ـ قيل: إن حسن الخلق هو: بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال الأذى[٥].

٢ ـ قيل: حسن الخلق بذل الجميل، وكفُّ القبيح[٦].

٣ ـ وقيل: التخلي من الرذائل، والتحلي بالفضائل[٧].

---

(١) (٢) (٣) لسان العرب ١٣/١١٤.

(٤) لسان العرب ١٣/١١٦.

(٥) (٦) (٧) مدارج السالكين ٢/٢٩٤.

٤ ـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وجماع الخلق الحسن مع الناس أن تصل من قطعك بالسلام، والإكرام، والدعاء له، والاستغفار، والثناء عليه، والزيارة له.

وتعطي من حرمك من التعليم، والمنفعة، والمال.

وتعفو عمن ظلمك في دم، أو مال، أو عرض.

وبعض هذا واجب، وبعضه مستحب»[١].

٥ ـ وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل»[٢].

٦ ـ وقال الماوردي ـ رحمه الله ـ في تعريف حُسْنِ الخلق، وَوَصْفِ حَسِنِ الخلق: «أن يكون سهل العريكة، ليِّن الجانب، طليق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة»[٣].

٧ ـ وقال الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ في حُسْنِ الخلق: «هو خلق فاضل عظيم، أساسه الصبر، والحلم، والرغبة في مكارم الأخلاق، وآثاره العفو، والصفح عن المسيئين، وإيصال المنافع إلى الخلق أجمعين، فهو احتمال الجنايات، والعفو عن الزلات، ومقابلة السيئات بالحسنات، وقد جمع الله ذلك في آية واحدة وهي قوله: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾»[٤] [الأعراف، ١٩٩].

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع وترتيب الشيخ عبدالرحمن ابن قاسم وابنه محمد ١٠/٦٥٨.

(٢) مدارج السالكين ٢/٢٩٤. (٣) أدب الدنيا والدين، ص ٢٤٣.

(٤) الرياض الناضرة لابن سعدي ص ٦٨.

المبحث الثاني: فضائل حسن الخلق

لحسن الخلق فضائل عظيمة، في الدنيا والآخرة، على الأفراد والمجتمعات.

فمن تلك الفضائل مايلي:

١ ـ أنه امتثال لأمر الله ـ عز وجل ـ:

قال ـ تعالى ـ: **﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾** [الأعراف، ١٩٩].

فلقد جمع ـ سبحانه وتعالى ـ مكارم الأخلاق في تلك الآية، وأمر بالأخذ بها، والتحلي بما ورد فيها.

٢ ـ أنه طاعة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

فلقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الحديث الذي رواه أبو ذر ومعاذ ـ رضي الله عنهما ـ: **«وخالق الناس بخلق حسن»**[1].

٣ ـ حسن الخلق اقتداء بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

فلقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أكرم البشرية أخلاقاً، وأزكاهم نفساً.

---

(١) أخرجه أحمد ٥/١٣٥ ـ ١٥٨، والترمذي (١٩٨٧)، والدارمي ص ٧٧٩ رقم (٢٦٨٨)، والحاكم ١/٥٤، والخرائطي ١/٥٩ (٣) كلهم من حديث أبي ذر وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ [الأحزاب، ٢١].

٤ ـ أنه عبادة عظيمة.

ذلك أن الله ـ عز وجل ـ أمر به ـ كما مر ـ ورتب عليه الجزاء العظيم ـ كما سيأتي ـ.

فإذا اتصف المسلم بحسن الخلق، وكان ديدناً وعادة له ـ صار مطيعاً لربه، متعبداً له في كل أحواله؛ فتعظم بذلك أجوره، وتقال عثراته.

ثم إن حسن الخلق يتضمن عباداتٍ عظيمةً؛ ذلك أن الصبر، والحلم، والإحسان والكرم، ونحوها ـ تعد من الأسس الأخلاقية.

وهذه الأمور مما يدخل في مفهوم العبادة؛ فهي مما يحبه الله ويرضاه.

٥ ـ رفعة الدرجات:

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم**»[1].

٦ ـ أنه أعظم ما يدخل الجنة:

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**وأعظم ما يدخل الناس الجنة تقوى الله، وحسن الخلق**»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، والحاكم ١/ ٦٠ عن عائشة، وقال الحاكم: إسناده على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤) وابن ماجة (٤٢٤٦) وابن حبان ٢/ ٢٢٤ رقم =

٧ ـ كسب القلوب:

فَحُسْنُ الخلقِ من أعظم الأسباب الداعية لكسب القلوب؛ فهو يحبب صاحبه للبعيد والقريب، وبه ينقلب العدو صديقاً، ويصبح البغيض حبيباً، ويصير البعيد قريباً.

وبحسن الخلق يتقرب المرء للناس، ويتمكن من إرضائهم على اختلاف مشاربهم، وطبقاتهم؛ فكل من جالس حَسَنَ الخُلُقِ أحبه، ورغب في مجلسه.

٨ ـ تيسير الأمور:

فَحُسْنُ الخلق سبب لذلك؛ لأنه من تقوى اللّهِ، واللّهُ ـ عز وجل ـ يقول: ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ [الطلاق، ٤].

٩ ـ حسن الخلق مدعاة للذكر الحسن:

فالناس تلهج ألسنتها بذكر أهل الخلق الحسن، والتاريخ يسطر مآثرهم، والركبان تسري بحديثهم.

١٠ ـ السلامة من شر الخلق:

لأن صاحب الخلق الحسن لا يقابل الإساءة بالإساءة، وإنما يقابلها بالصفح، والعفو، والإعراض، وربما قابلها بالإحسان.

= (٤٧٦)، والحاكم ٤/٣٢٤ كلهم عن أبي هريرة، وقال الترمذي: حديث صحيح غريب، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/١٩٤ رقم (١٦٣٠).

ولو جارى الناس في سفههم لما كان له فضل عليهم، ولما سلم من أذاهم.

فلو لم يأت من حسن الخلق إلا هذه الفائدة لكان حَرِيّاً بالعاقل أن يتحلى به.

١١ ـ القرب من مجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم القيامة:

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إن من أحبِّكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنَكم أخلاقاً**»(١).

١٢ ـ محبة الله ـ عز وجل ـ:

فالله ـ عز وجل ـ يحب مكارم الأخلاق، ويحب أهلها، بل إن أحب العباد إلى الله أحسنهم أخلاقاً.

فعن أسامة بن شريك ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنا جلوساً عند النبي، صلى الله عليه وسلم، كأنما على رؤوسنا الطير، ما يتكلم منا متكلم، إذ جاءه أناس فقالوا: من أحبُّ عباد الله إلى الله؟ قال: **أحسنهم أخلاقاً**»(٢).

وإذا أحبَّ اللَّهُ يوماً عبدَه ... ألقى عليه محبةً في الناس(٣)

---

(١) مضى تخريجه، وأخرجه بهذا اللفظ ـ الخرائطي في مكارم الأخلاق ١/ ٣٤ رقم ٢٠ عن جابر.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١/ ١٨١ رقم ٤٧١، وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ٢٤: «رجاله رجال الصحيح».

(٣) بهجة المجالس ٢/ ٦٦٤.

١٣ ـ حسن الخلق أثقل شيء في الميزان يوم القيامة:

فعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ عن النبي، صلى الله عليه وسلم: «**ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق**»[1].

١٤ ـ زيادة الأعمار وعمارة الديار:

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**حسن الخلق، وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار**»[2].

١٥ ـ حسن الخلق إحسان قد يزيد على الإحسان المالي:

لأن المال قد يصحبه مِنَّةٌ وتعالٍ على الخلق، ولأن صاحب المال قد لا يسع الناس بماله.

أما حسن الخلق فإحسان لا يصحبه منةٌ، ولا تعالٍ على الخلق، وصاحب الخلق الحسن يسع الناس بخلقه.

وإذا كان المال يدخل السرور على المساكين والفقراء ونحوهم ـ فكذلك حسن الخلق يدخل السرور والبهجة على النفوس مهما اختلفت مشاربها.

إضافة إلى ذلك فبذل المال داخل في مكارم الأخلاق.

---

(٤) أخرجه أحمد ٦/٤٤٦ ـ ٤٤٨ وأبو داود رقم (٤٧٩٩) والترمذي (٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٣) وابن حبان ١٢/ ٢٣٠ رقم (٤٨١) والخرائطي ١/ ٦٩ رقم (٥٠) كلهم من حديث أبي الدرداء. وقال الترمذي حسن صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٧٦) وفي صحيح الأدب المفرد (٢٠٤).

(٢) رواه أحمد ٦/ ١٥٩ عن عائشة، وصححه الألباني في الصحيحة (٥١٩).

١٦ ـ التوصل للحق:

فبحسن الخلق يتوصل المناظر أو المخاصم من إبداء حجته، وفهم حجة صاحبه، ويسترشد بذلك إلى الصواب قولاً وعملاً.

وكما أنه سبب لحصول ذلك في نفس المناظر أو المخاصم ـ فهو كذلك من أقوى الدواعي لحصوله لمن ناظره أو خاصمه.

وبذلك يتمكن الطرفان من الوصول للحق، ويسلم كل واحدٍ منهما من اللجاج، والجدال، والمراء، والتعصب.

١٧ ـ زيادة العلم:

فبالخلق الحسن يصفو القلب، وتطمئن النفس، وذلك مدعاة لأن يتمكن المرء من معرفة العلوم التي يسعى لإدراكها، والمعارف التي يروم تحصليها.

ثم إن حسن الخلق يدعو صاحبه للتواضع، والتأدب في مجالس العلم، وهذا مما يزيد العلم، ويقوي الإدراك.

١٨ ـ حصول الخيرية:

فعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: «**خياركم أحاسنكم أخلاقاً**»[1].

١٩ ـ السلامة من مضار الطيش والعجلة:

فبالخلق الحسن يسلم المرء من مضار العجلة والطيش،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٧/٨٢ ومسلم (٢٣٢١) من حديث عبدالله ابن عمرو.

برزانته، وصبره، ونظره لكل ما يمكن من الاحتمالات.

٢٠ ـ الوفاء بالحقوق الواجبة والمستحبة:

فبالخلق الحسن يتمكن المرء من الوفاء بتلك الحقوق للأهل، والأولاد، والأقارب، والأصحاب، والجيران، والمعاملين، وسائر من بينه وبينهم مخالطة أو حق؛ فكم من حقوق أضيعت من جراء سوء الخلق.

٢١ ـ الإنصاف:

فبحسن الخلق تنال فضيلة الإنصاف، وأكرم بها من فضيلة، فصاحب الخلق الحسن يأبى عليه خُلُقُه الحسن من التعصب المقيت، والانتصار للنفس؛ لأن ذلك يحمل على الاعتساف وقلة الإنصاف.

٢٢ ـ راحة البال وطيب العيش:

فصاحب الخلق الحسن في راحة حاضرة، ونعيم عاجل؛ فإن قلبه مطمئن، ونفسه ساكنة، وذلك مادة الراحةِ العاجلة، وطيبِ العيش.

كما أن صاحب الخلق السيِّء في شقاء حاضر، وعذاب مستمر، ونزاع ظاهري وباطني مع نفسه، وأولاده، ومخالطيه، مما يشوش عليه حياته، ويكدر عليه أوقاته، مع ما يترتب على ذلك من فوات الآثار الطيبة، والتعرض لضدها.

«فمن حَسُنَ خُلُقُه طابت معيشتُه، ودامت سلامتُه، وتأكَّدت في الناس محبتُه.

ومن ساء خلقه تكدرت معيشته، ودامت بَغْضَتُه، ونفر الناس منه» . [١]

٢٣ ـ حصول الوئام والاتفاق التام في المجتمع:

فإذا حسُنت الأخلاق في مجتمعٍ ما ـ شاعَ الوِئام والتراحُم، وسادت الأُلفة والمودة في ذلك المجتمع.

ذلك «أن الامتزاج بمكارم الأخلاق يجبي إلى صاحبه عرفانَ ما له من الحقوق، وما عليه من الواجبات؛ فلا يخل حينئذٍ بواجب، ولا يَدَّعي إلا بحق.

وذلك يدعو بالضرورة إلى شدة الارتباط، وكمال الالتئام الذي يجعل أفراد الأمة عضواً واحداً للتعاون على البر والتقوى، والتعاضد على الأعمال التي تنتج لهم التقلب في عيشة راضية، وتحفظ لأعقابهم مستقبلاً حسناً» . [٢]

٢٤ ـ صد هجمات الأعداء:

فالعدو إنما يتسلل، ويبث سمومه في صفوف الأمة المنهارة في أخلاقها.

أما الأمة التي تتمتع بالأخلاق الفاضلة ففي منعة من ذلك.

٢٥ ـ وبه يتمكن المرء من إصلاح ذات البين:

فحَسَنُ الخلق يرضى به جميع الأطراف، وبذلك يستطيع أن يجمع القلوب المتنافرة، والآراء المشتتة.

---

(١) أقوال مأثورة ص ٢١٥ عن أدب المملي ص ١٧٠ .

(٢) حياة الأمة لمحمد الخضر حسين ص ٥١ .

٢٦ ـ حسن الخلق يستر العيوب:

فقد يبتلى المرء بكثير من الآفات والعيوب الخِلْقيَّة من دمامة ونحوها، مما يجعله عرضة للذم، وغرضاً للسخرية من بعض الناس.

ولكن ذلك لا يُقْصِرُه عن مجد، ولا يقعد به عن سؤدد، وذلك إذا رزق بخلق حسن، وعقل راجح.

فَحُسْنُ الخُلُقِ يغطي غيره من القبائح، كما أن سوء الخلق يقبح غيره من المحاسن[1].

فهـذا الأحنف بن قيس الذي سارت بأخباره الركبان كان من أقبح الناس خلقةً؛ فما من خصلة ذم إلا وهي موجودة فيه.

ومع ذلك بلغ ما بلغ من المجد والسؤدد بحلمه، وشجاعته، وحسن خلقه، وروعة بيانه.

«روى الهيثم بن عدي عن أبي يعقوب الثقفي عن عبدالملك ابن عمير، قال: قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة مع مصعب ابن الزبير، فما رأيت خصلة تذم في رجل إلا وقد رأيتها فيه، كان صَعْل الرأس، [2] أحجن[3] الأنف، أغضف[4] الأذن، متراكب الأسنان، أشدق، [5] مائل الذقن، ناتىء الوجنة، باخق[6] العين، خفيف

(١) انظر أقوال مأثورة ص ٢٣٤.

(٢) صعل الرأس: دقيقه.

(٣) أحجن: الحجن: اعوجاج الشيء، وأحجن الأنف مقبل الروثة نحو الفم.

(٤) أغضف: مسترخٍ.

(٥) الأشدق: الشدق المائلة.

(٦) البخق: أن تخسف العين بعد العور، والبخق أقبح ما يكون من العور، وأكثر غمصاً.

العارضين، أحنف الرجلين، ولكنه كان إذا تكلم جلَّى عن نفسه»[١].

ليس الجمال بمُئزرٍ فاعلم إذا رُدِّيت بردا
إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا[٢]

(١) البيان والتبين للجاحظ ١/٥٦، وانظر زهر الآداب للحصري القيرواني ٣/١٩٩، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤/٩٤.

(٢) البيت لعمرو بن معد يكرب الزبيدي، انظر ديوانه ص ٦٧.

الفصل الثاني

أسباب اكتساب حسن الخلق

لا ريب أن أثقل ما على الطبيعة البشرية تغير الأخلاق التي طبعت عليها النفس، إلا أن ذلك ليس متعذراً ولا مستحيلاً ـ كما مر ـ.

بل إن هناك أسباباً عديدةً، ووسائلَ متنوعةً يستطيع الإنسان من خلالها أن يكتسب حسن الخلق.

ومن ذلك مايلي:

١ ـ سلامة العقيدة:

فشأن العقيدة عظيم، وأمرها جلل؛ فالسلوك ـ في الغالب ـ ثمرة لما يحمله الإنسان من فكر، وما يعتقده من معتقد، وما يدين به من دين.

والانحراف في السلوك إنما هو ناتج عن خلل في المعتقد.

ثم إن العقيدة هي الإيمان، وأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً؛ فإذا صحت العقيدة حسنت الأخلاق تبعاً لذلك؛ فالعقيدة الصحيحة تحمل صاحبها على مكارم الأخلاق من صدق، وكرم، وحلم وشجاعة، ونحو ذلك.

كما أنها تَرْدَعُه وتزمُّه عن مساوىء الأخلاق من كذبٍ، وشحٍّ، وطيشٍ، وجهل، ونحوها.

قال الغزالي ـ رحمه الله ـ: «آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتيجة الأخلاق، والآداب رشح المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فَتُزَيِّنُهَا، وتجليها، وتبدل بالمحاسن مكارهها ومساويها.

ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه، ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية لم يُفِضْ على ظاهره جمال الآداب النبوية»(١).

فإذا كان الأمر كذلك فما أجدر المسلم أن يحرص كل الحرص على سلامة عقيدته وصفائها من كل شائبة تشوبها، وما أحرى بالمصلحين أن يقدموا أمر العقيدة على كل شيء؛ لأن الناس إذا صحت عقائدهم زكت نفوسهم، واستقامت أخلاقهم تبعاً لذلك.

٢ ـ الدعـــاء:

فالدعاء باب عظيم، فإذا فتح للعبد تتابعت عليه الخيرات، وانهالت عليه البركات.

فمن رغب بالتحلي بمكارم الأخلاق، ورغب بالتخلي من مساوىء الأخلاق ـ فليلجأ إلى ربه، وليرفع إليه أكف الضراعة؛ ليرزقه حسن الخلق، ويصرف عنه سيئه؛ فالدعاء مفيد في هذا الباب وغيره، ولهذا كان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كثير الضراعة إلى ربه يسأله أن يرزقه حسن الخلق، وكان يقول في دعاء الاستفتاح: «**اللهم اهدني لأحسن الأخلاق؛ لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني**

(١) إحياء علوم الدين ٢/٣٥٧.

سيئها؛ **لا يصرف عني سيئها إلا أنت»**[(١)].

وكان من دعائه: **«اللهم جنبني منكرات الأخلاق، والأهواء، والأعمال، والأدواء»**[(٢)].

وكان يقول: **«اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والهرم، والبُخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات»**[(٣)].

٣ ـ المجاهدة:

فالمجاهدة تنفع كثيراً في هذا الباب؛ ذلك أن الخلق الحسن نوع من الهداية يحصل عليه المرء بالمجاهدة.

قال ـ عز وجل ـ: **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾** [العنكبوت، ٦٩].

فمن جاهد نفسه على التحلي بالفضائل، وجاهدها على التخلي من الرذائل حصل له خير كثير، واندفع عنه شر مستطير؛ فالأخلاق ـ كما مر ـ منها ما هو غريزي فطري، ومنها ما هو اكتسابي يأتي بالدربة والممارسة.

والمجاهدة لا تعني أن يجاهد المرء نفسه مرة أو مرتين أو أكثر،

---

(١) رواه مسلم ١/٥٣٥ (٧٧١) من حديث علي ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم ١/٥٣٢ من حديث عم زياد بن علاقة، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه البخاري ٧/١٥٩ الدعوات، باب التعوذ من فتنة المحيا والممات، ومسلم (٢٧٠٦) الذكر والدعاء، باب التعوذ من العجز والكسل.

بل تعني أن يجاهد نفسه حتى يموت؛ ذلك أن المجاهدة عبادة، والله ـ تبارك وتعالى ـ يقول: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [الحجر، ٩٩].

٤ ـ المحاسبة:

وذلك بنقد النفس إذا ارتكبت أخلاقاً ذميمة، وحَمْلِها على ألا تعود إلى تلك الأخلاق مرة أخرى، مع أخذها بمبدأ الثواب إذا أحسنت، وأخذها بمبدأ العقاب إذا توانت وقَصَّرَتْ.

فإذا أحسنت أراحها، وأجَمَّها، وأرسلها على سجيتها بعض الوقت في المباح.

وإذا أساءت وقَصَّرَتْ أخذها بالحزم والجد، وحرمها من بعض ما تريد.

على أنه لا يحسن المبالغة في محاسبة النفس؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى انقباضها وانكماشها.

قال ابن المقفع: «ليحسن تعاهدُك نفسَك بما تكون به للخير أهلاً؛ فإنك إن فعلت ذلك أتاك الخير يطلبك كما يطلب الماء السيل إلى الحدورة».[(١)(٢)]

٥ ـ التفكر في الآثار المترتبة على حسن الخلق:

فإن معرفة ثمرات الأشياء، واستحضار حسن عواقبها ـ من أكبر الدواعي إلى فعلها، وتمثلها، والسعي إليها.

فكلما تَصَعَّبَت النفس فذكِّرها تلك الآثار، وما تجني بالصبر

(١) الحدورة: المنخفض من الأرض.

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ٩٠.

من جميل الثمار؛ فإنها حينئذ تلين، وتنقاد طائعة منشرحة؛ فإن المرء إذا رغب في مكارم الأخلاق، وأدرك أنها أولى ما اكتسبته النفوس، وأجل غنيمة غنمها الموفقون ـ سهل عليه نيلها واكتسابها[1].

٦ ـ النظر في عواقب سوء الخلق:

وذلك بتأمل ما يجلبه سوء الخلق من الأسف الدائم، والهم الملازم، والحسرة والندامة، والبغضة في قلوب الخلق؛ فذلك يدعو المرء إلى أن يُقْصِرَ عن مساوىء الأخلاق، وينبعث إلى محاسنها.

٧ ـ الحذر من اليأس من إصلاح النفس:

فهناك من إذا ابتلي بمساوىء الأخلاق ظن أن ذلك الأمر ضربة لازب لا تزول، وأنه وصمة عار لا تنمحي.

وهناك من إذا حاول التخلص من عيوبه مرة أو أكثر فلم يفلح ـ أيس من إصلاح نفسه، وترك المحاولة إلى غير رجعة.

وهذا الأمر لا يحسن بالمسلم، ولا يليق به أبداً؛ فلا ينبغي له أن يرضى لنفسه بالدُّون، وأن يترك رياضة نفسه؛ زعماً منه أن تبدل الحال من المحال.

بل ينبغي له أن يُقَوِّيَ إرادته، ويشحذ عزمته، وأن يسعى لتكميل نفسه، وأن يجدَّ في تلافي عيوبه؛ فكم من الناس من تبدَّلت حاله، وسمت نفسه، وقلَّتْ عيوبُه بسبب دربته، ومجاهدته، وسعيه، وجِدِّه، ومغالبته لطبعه.

---

(١) انظر الفتاوى السعدية لابن سعدي ص ٤٦١.

قال ابن المقفع: «وعلى العاقل أن يحصيَ على نفسه مساويها في الدين، وفي الأخلاق، وفي الآداب، فيجمع ذلك كله في صدره، أو في كتاب، ثم يكثر عرضه على نفسه، ويكلفها إصلاحه، ويوظف ذلك عليها توظيفاً من إصلاح الخَلَّة أو الخلتين في اليوم، أو الجمعة، أو الشهر.

فكلما أصلح شيئاً محاه، وكلما نظر إلى محو استبشر، وكلما نظر إلى ثابت اكتأب».[1]

يقول الإمام ابن حزم ـ رحمه الله ـ متحدثاً عن تجربته مع نفسه، وعن محاولاته في التخلُّص من عيوبه، وعن النتائج التي حصل عليها من جَرَّاء ذلك، يقول: «كانت فيَّ عيوب، فلم أزل بالرياضة، واطلاعي على ما قالت الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق وآدب النفس، أعاني مدواتها، حتى أعان الله ـ عز وجل ـ على أكثر ذلك بتوفيقه ومَنِّه.

وتمام العدل، ورياضة النفس، والتصرف بالأمور ـ هو الإقرار بها؛ ليتعظ بذلك متعظ يوماً إن شاء الله.

فمنها[2] كَلَفٌ في الرضاء، وإفراط في الغضب، فلم أزل أداوي ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام، والفعل، والتخبط، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار، وتحملت من

---

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ٥٤.

(٢) يعني عيوبه.

ذلك ثقلاً شديداً، وصبرت على مضض مؤلم كان ربما أمرضني، وأعجزني ذلك في الرضا، وكأني سامحت نفسي؛ لأنها تمثلت أن تركَ ذلك لؤم.

ومنها دعابة غالبة، فالذي قدرت عليه منها إمساكي عما يغضب الممازح، وسامحت نفسي فيها؛ إذ رأيت أن تركها من الانغلاق، ومضاهياً للكبر.

ومنها عجب شديد، فَنَاظَرَ عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب ذلك كلُّه، ولم يبق له ـ والحمد لله ـ أثر، بل كلَّفت نفسي احتقار قدرها جملة، واستعمال التواضع.

ومنها حركات كانت تولدها غرارة الصبا، وضعف في الإغضاء، فَقَصَرْتُ نفسي على تركها فذهبت.

ومنها محبة في بعد الصيت والغلبة، فالذي وقفت عليه في معاناة هذا الداء الإمساك فيه عما لا يحل في الديانة، والله المستعان على الباقي»[1].

وقال ـ أيضاً ـ: «ومنها إفراط في الأنفة بَغَّضَتْ إليَّ نكاح الحُرُم بكل وجه، وصعبت ذلك في طبيعتي، وكأني توقفت عن مغالبة هذا الإفراط الذي أعرف قبحه لعوارض اعترضت علي والله المستعان.

ومنها عيبان قد سترهما الله ـ تعالى ـ وأعان على مقاومتهما، وأعان بلطفه عليهما، فذهب إحداهما البتة ـ ولله الحمد ـ، وكأن

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم ص ٣٣ ـ ٣٤.

السعادة كانت موكلةً بي، فإذا لاح منه طالع قصدت طمسه، وطاولني الثاني منهما، فكان إذا ثار منه مدوده[1] نبضت عروقه، فيكاد يظهر، ثم يسر الله قَدْعَهُ بضروب من لطفه حتى أخلد.

ومنها حقد مُفْرِط، قدرت بعون الله ـ تعالى ـ على طيِّه وستره، وغلبته على إظهار جميع نتائجه، وأما قطعه البتة فلم أقدر عليه.

وأعجزني أن أصادق من عاداني عداوة صحيحة أبداً»[2].

٨ ـ علو الهمة:

فعلو الهمة يستلزم الجد، والإباء، ونشدان المعالي، وتطلاب الكمال، والترفع عند الدنايا، والصغائر، ومحقرات الأمور.

والهمة العالية لا تزال بصاحبها تضربه بسياط اللوم والتأنيب، وتزجره عن مواقف الذل، واكتساب الرذائل، وحرمان الفضائل حتى ترفعه من أدنى دركات الحضيض إلى أعلى مقامات المجد والسؤدد.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فمن علت همته، وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل، ومن دنت همته، وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل»[3].

وقال ـ رحمه الله ـ: «فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها، وأفضلها، وأحمدها عاقبة.

والنفـوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع

(١) مدوده: جمع مد وهو كثرة الماء.

(٢) الأخلاق والسير، ص ٣٤.

(٣) الفوائد لابن القيم، ص ٢١١.

الذباب على الأقذار؛ فالنفوس العليَّة لا ترضى بالظلم، ولا بالفواحش، ولا بالسرقة ولا بالخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك وأجل.

والنفوس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك»[١].

فإذا توفر المرء على اقتناء الفضائل، وألزم نفسه على التخلق بالمحاسن، ولم يرض من منقبة إلا بأعلاها، ولم يقف عند فضيلة إلا وطلب الزيادة عليها، واجتهد فيما يحسن سياسة نفسه عاجلاً، ويبقي لها الذكر الجميل آجلاً ـ لم يلبث أن يبلغ الغاية من التمام، ويرتقي إلى النهاية من الكمال، فيحوز السعادة الإنسانية، والرئاسة الحقيقية، ويبقى له حسن الثناء مؤبداً، وجميل الذكر مخلداً[٢].

٩ ـ الصبر:

فالصبر من الأسس الأخلاقية التي يقوم عليها الخلق الحسن؛ فالصبر يحمل على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم، والأناة، والرفق، وترك الطيش والعجلة[٣].

وقلَّ من جدَّ في أمر تطلبه   واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

١٠ ـ العفة:

فهي تحمل على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمل على الحياء وهو رأس كل خير، وتمنع من الفحشاء، والبخل، والكذب، والغيبة، والنميمة[٤].

---

(١) الفوائد ص ٢٦٦.

(٢) انظر تهذيب الأخلاق للجاحظ ص ٦١.

(٣) (٤) انظر مدارج السالكين ٢/٢٩٤.

١١ ـ الشجاعة:

فهي تحمل على عزة النفس، وإباءة الضيم، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس، وقُوَّتها على إخراج المحبوب ومفارقته.

وهي تحمل صاحبها على كظم الغيظ، والحلم؛ فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عِنانها، ويكبحها بلجامها عن النزق والطيش[١].

١٢ ـ العدل:

فهو يحمل على اعتدال الأخلاق، وتوسطها بين طرفي الإفراط والتفريط؛ فيحمل على خلق الجود الذي هو توسط بين البخل والإسراف، وعلى خلق التواضع الذي هو توسط بين الذلة والقِحَة، وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس[٢].

١٣ ـ تَكلّفُ البشر والطلاقة، وتُجنّبُ العبوس والتقطيب:

قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «البشاشة إدام العلماء، وسجية الحكماء؛ لأن البشر يطفىء نار المعاندة، ويحرق هيجان المباغضة، وفيه تحصين من الباغي، ومنجاة من الساعي»[٣].

---

(١) (٢) انظر مدارج السالكين ٣/٣٩٤.

(٣) روضة العقلاء، ص ٧٥.

وقال الشاعر:

الْقَ بالبِشْرِ منْ لقيت من النا   س جميعاً ولاقِه بالطلاقةْ
تَجْنِ منهم جَنَى ثمارٍ فَخُذْهَا   طيباً طَعْمُهُ لذيذُ المذاقةْ(١)

وقال أبو جعفر المنصور: «إن أحببت أن يكثر الثناء الجميل عليك من الناس بغير نائل ـ فالقهم ببشر حسن». (٢)

«قيل للعتابي: إنك تلقى الناس كلهم بالبشر!

قال: دفع ضغينة بأيسر مؤونة، واكتساب إخوان بأيسر مبذول» (٣).

وقال محمد بن حازم:

وما اكتسب المحامدَ حامدوها   بمثل البشر والوجه الطليق(٤)

وقال آخر:

أخو البشر محبوبٌ على حسن بشره   ولن يعدمَ البغضاءَ من كان عابسا(٥)

وقال آخر:

البِشْرُ يُكْسِبُ أَهْلَهُ   صَدْقَ المودةِ والمحبةْ
والتِّيهُ يستدعي لصا   حبه المذمة والمسبةْ(٦)

---

(١) روضة العقلاء، ص ٧٦.
(٢) عين الأدب والسياسة لعلي بن عبدالرحمن بن هذيل ص ١٥٤.
(٣) بهجة المجالس ٢/٦٦٥.
(٤) بهجة المجالس ٢/٥٩٨.
(٥) روضة العقلاء، ص ٧٥.
(٦) عين الأدب والسياسة ص ١٥٣.

وقال ابن عقيل الحنبلي ـ رحمه الله ـ: «البشر مُؤنِّسٌ للعقول، ومن دواعي القبول، والعبوس ضده»[١].

بل إن تبسم الرجل في وجه أخيه المسلم صدقةٌ يثاب عليها.

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «**تبسمك في وجه أخيك لك صدقة**».[٢]

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**».[٣]

وإذا كان الأمر كذلك فَأَجْدِرْ بالعاقل ألا يُرى إلا هاشّاً باشّاً، مُتهلِّلاً مُتطلِّقاً.

فإن كان ذلك سجية في المرء وطبعاً ـ فليحمد الله، وليتعاهد هذه الخصلة الحميدة من نفسه.

وإلا فليجاهد نفسه على تكلُّف البشر والطلاقة، وعلى تجنُّب العبوس والتقطيب جملة؛ حتى تألفه ذلك نفسه، وتأنس به أنس الرضيع بثدي أمه.

وحينئذٍ تَرِقُّ حواشيه، وتلين عريكته، ويُؤنس في حديثه، ويرغب في مجلسه.

---

(١) كتاب الفنون لابن عقيل ٢/٦٣٥.

(٢) أخرجه الترمذي (٩٥٦) باب ما جاء في صنائع المعروف وقال: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٢) وصحيح الجامع (٢٩٠٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦٢٦).

١٤ ـ التغاضي والتغافل:

فالتغاضي والتغافل من أخلاق الأكابر والعظماء، وهو مما يعين على استبقاء المودة واستجلابها، وعلى وأد العداوة وإخلاد المباغضة.

ثم إنه دليل على سُمُوِّ النفس، وشفافيتها، وهو مما يرفع المنزلة، ويعلي المكانة.

قال ابن الأثير متحدثاً عن صلاح الدين الأيوبي: «وكان ـ رحمه الله ـ حليماً حسنَ الأخلاق، متواضعاً، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره، ولا يُعلمه بذلك، ولا يتغير عليه.

وبلغني أنه كان جالساً وعنده جماعة، فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموز[١] فأخطأته، ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته، ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه؛ ليتغافل عنها»[٢].

وكان الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ كثير التغاضي عن كثير من الأمور في حق نفسه، وحينما يسأل عن ذلك كان يقول:

ليس الغبيُّ بسيد في قومه   لكنَّ سَيِّدَ قومِه المتغابي[٣]

---

(١) سرموز: لم أجد لهذه الكلمة معنى؛ فما أدري أهي مُصَحَّفة، وأصلها بقشر موز؟ أم هي كلمة أعجمية؟ لا أدري.

(٢) الكامل في التاريخ ٩/٢٢٥.

(٣) انظر ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي للشيخ عبدالرحمن السديس، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «من لم يعاشر الناس على لزوم الإغضاء عما يأتون من المكروه، وترك التوقع لما يأتون من المحبوب ـ كان إلى تكدير عيشه أقرب منه إلى صفائه، وإلى أن يدفعه الوقت إلى العداوة، والبغضاء أقرب منه أن ينال منهم الوداد وترك الشحناء»[١].

قال ابن المقفع: «إن من إرب[٢] الأريب دفنَ إربه ما استطاع؛ حتى يعرفَ بالمسامحة في الخليقة، والاستقامة على الطريقة».[٣]

قال الشاعر:

أُغَمِّضُ عيني عن صديقي كأنني ... لديه بما يأتي من القبح جاهل
وما بِيَ جهلٌ غير أن خليقتي ... تطيق احتمالَ الكرهِ فيما أحاول[٤]

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ:

أُغَمِّضُ عيني عن أمورٍ كثيرةٍ ... وإني على ترك الغَمُوض قديرُ
وما من عمىً أُغضِي ولكن لربما ... تعامى وأغضى المرءُ وهو بصيرُ
وأسكت عن أشياءَ لو شئتُ قلتُها ... وليس علينا في المقال أميرُ
أُصَبِّر نفسي باجتهادي وطاقتي ... وإني بأخلاق الجميع خبيرُ[٥]

١٥ ـ الحلم:

فالحلم من أشرف الأخلاق، وأحقها بذوي الألباب؛ لما فيه

(١) روضة العقلاء، ص ٧٢.
(٢) الإرب: العقل والدهاء.
(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٤٧.
(٤) روضة العقلاء، ص ٧٣.
(٥) ديوان الإمام علي ص ١٠٦.

من سلامة العرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد.

وحد الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب.

وليس من شرط الحلم ألا يغضب الحليم، وإنما إذا ثار به الغضب عند هجوم دواعيه كفَّ سورته بحزمه، وأطفأ ثائرته بحلمه[1].

فإذا اتصف المرء بالحلم كثر محبوه، وقل شانئوه، وعلت منزلته، ووفرت كرامته.

هذا وستتضح بعض معالم الحلم في الفقرات الآتية ـ إن شاء الله ـ.

١٦ ـ الإعراض عن الجاهلين:

فمن أعرض عن الجاهلين حمى عرضه، وأراح نفسه، وسلم من سماع ما يؤذيه.

قال ـ عز وجل ـ: ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ [الأعراف، ١٩٩].

فبالإعراض عن الجاهلين يحفظ الرجل على نفسه عزتها؛ إذ يرفعها عن الطائفة التي تلذ المهاترة والإقذاع.

قال بعض الشعراء:

إني لَأُعْرِضُ عن أشياءَ أَسْمَعُها   حتى يقولَ رجالٌ إن بي حُمُقَا
أخشى جوابَ سفيهٍ لا حياءَ له   فَسْلٍ وظَنَّ أُناسٍ أنه صدقا[2]

---

(١) انظر أدب الدنيا والدين، ص ٢٥٢ و ٢٥٧.

(٢) عيون الأخبار ١/٢٨٤.

والعرب تقول: «إن من ابتغاء الخيرِ اتقاءَ الشَّرِّ»[١].

«وروي أنَّ رجلًا نال من عمر بن عبدالعزيز، فلم يُجِبْهُ، فقيل له: ما يمنعك منه؟.

قال: التقيُّ مُلْجَمٌ»[٢].

١٧ ـ الترفع عن السباب:

فذلك من شرف النفس، وعلوِّ الهمة، كما قالت الحكماء: «شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم»[٣].

«قال رجل من قريش: ما أظن معاوية أغضبه شيء قط.

فقال بعضهم: إن ذُكرت أمُّه غضب.

فقال مالك بن أسماء المنى القرشي: أنا أغضبه إن جعلتم لي جُعْلًا[٤]، ففعلوا، فأتاه في الموسم، فقال له: يا أمير المؤمنين إن عينيك لتشبهان عيني أمك.

قال: نعم كانتا عينين طالما أعجبتا أبا سفيان! ثم دعا مولاه شقران فقال له: أعدد لأسماء المنى دِيَةَ ابْنِهَا؛ فإني قد قتلته وهو لا يدري.

---

(١) الأمثال لأبي عبيد ص ١٥٩.

(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبدالعزيز الخليفة الخائف الخاشع، لأبي حفص عمر بن محمد الخضر المعروف بالملاَّ تحقيق الشيخ د. محمد صدقي البورنو ٢/٤٢٤.

(٣) أدب الدنيا والدين، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٤) الجُعْل: هو الأجر على الشيء فعلًا أو قولًا. انظر لسان العرب ١١/١١١.

فرجع وأخذ الجعل، فقيل له: إن أتيت عمر بن الزبير فقلْ[1] له مثل ما قلت لمعاوية أعطيناك كذا وكذا.

فأتاه فقال له ذلك، فأمر بضربه حتى مات.

فبلغ معاوية، فقال: أنا والله قتلته، وبعث إلى أمه بديته، وأنشأ يقول:

ألا قُلْ لأسماءِ المنى أُمِّ مالكٍ فإني لعمر الله أهلكت مالكا»[2]

«وروي أن عمر بن عبدالعزيز لما ولي الخلافة خرج ليلةً في السَّحَرِ إلى المسجد ومعه حَرَسِيٌّ، فمرَّا برجل نائم على الطريق، فعَثُر به، فقال: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا، فَهَمَّ الحرسيُّ به، فقال عمر: مَهْ؛ فإنه سألني: أمجنون أنت؟ فقلت: لا»[3].

«وقيل: وجاء رجل إلى الأحنف بن قيس فلطم وجهه، فقال: بسم الله، يابن أخي ما دعاك إلى هذا؟

قال: آليت[4] أن أَلْطِمَ سَيِّدَ العرب من بني تميم.

قال: فَبُرَّ بيمينك، فما أنا بسيدها، سيدها حارثةُ بن قُدامة.

فذهب الرجل فلطم حارثة، فقام إليه حارثة بالسيف فقطع يمينه.

---

(١) لعل الصواب: فقُلتَ.

(٢) المحاسن والمساوىء ص ٥٧٩.

(٣) الكتاب الجامع ٢/٤٢٥.

(٤) آليت: يعني حلفت وأقسمت، والأَلِيَّة: الحلف.

فبلغ ذلك الأحنف، فقال: أنا والله قطعتها»[١].

قال الأصمعي: «بلغني أن رجلاً قال لآخر: والله لئن قلت واحدةً لتسمعن عشراً.

فقال الآخر: لكنك إن قلت عشراً لم تسمع واحدة!»[٢].

«وشتم رجل الحسن وأربى عليه، فقال له: أما أنت فما أبقيت شيئاً، وما يعلم الله أكثر»[٣].

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

إذا سبني نذلٌ تزايدتُ رِفْعَةً　　وما العيب إلا أن أكون مسابه
ولو لم تكن نفسي عليَّ عزيزةً　　لَمَكَّنْتُهَا من كل نذل تحاربه[٤]

وقال آخر:

ولست مشاتماً أحداً؛ لأني　　رأيت الشتم من عيٍّ الرجال
إذا جعل اللئيمُ أباه نصباً　　لِشَاتِمِهِ فديت أبي بمالي[٥]

١٨ ـ الاستهانة بالمسيء:

وذلك ضرب من ضروب الأنفة والعزة، ومن مستحسن الكبر والإعجاب.

«حكي عن مصعب بن الزبير أنه لما ولي العراق جلس يوماً

(١) المحاسن والمساوىء ص ٥٧٩.
(٢) عيون الأخبار ١/٢٨٥.
(٣) عيون الأخبار ١/٢٨٧.
(٤) ديوان الشافعي ص ٩٠.
(٥) بهجة المجالس ٢/٤٣٧.

لعطاء الجند، وأمر مناديه، فنادى: أين عمرو بن جرموز - وهو الذي قتل أباه الزبير - فقيل له: أيها الأمير، إنه قد تباعد في الأرض.

فقال: أويظن الجاهل أني أقيده بأبي عبدالله؟ فليظهر آمناً؛ ليأخذ عطاءه موفراً.

فَعَدَّ الناسُ ذلك من مستحسن الكبر»[١].

ومثل ذلك قول بعض الزعماء في شعره:

أو كلما طنَّ الذبابُ طردتُه ... إن الذبابَ إذاً عليَّ كريم[٢]

«وأكثر رجل من سب الأحنف وهو لا يجيبه، فقال - يعني السابَّ -: والله ما منعه من جوابي إلا هواني عليه»[٣].

وفي مثله يقول الشاعر:

نجا بك لُؤْمُك منجى الذباب ... حَمَتْه مقاذيرُه أن يُنالا[٤]

«وشتم رجل الأحنف، وجعل يتبعه حتى بلغ حَيَّه، فقال الأحنف: يا هذا إن كان بقي في نفسك شيء فهاته، وانصرف؛ لا يسمعك بعض سفهائنا، فتلقى ما تكره»[٥].

وقيل للشعبي: فلان يتنقصك ويشتمك، فتمثل الشعبيُّ بقول كُثَيِّر:

هنيئاً مريئاً غير داء مخامرٍ ... لِعَزَّةَ من أعراضنا ما استحلتِ
أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ... لدينا ولا مَقْلِيَّةً إن تَقَلَّتِ[٦]

---

(١) (٢) (٣) (٤) أدب الدنيا والدين، ص ٢٥٣.

(٥) عيون الأخبار ١/٢٨٧.

(٦) بهجة المجالس ٢/٤٣٦.

«وأسمع رجل ابن هبيرة فأعرض عنه، فقال: إياك أعني، فقال له: وعنك أعرَض»[١].

١٩ ـ نسيان الأذية:

وذلـك بأن تنسى أذية من نالك بسوء؛ ليصفو قلبك له، ولا تستوحش منه[٢]؛ فمن تَذَكَّرَ إساءة إخوانه لم تصْفُ له مودتهم، ومن تذكر إساءة الناس إليه لم يطب له العيش معهم؛ فانسَ ما استطعت النسيان.[٣]

٢٠ ـ العفو والصفح ومقابلة الإساءة بالاحسان:

فهذا سبب لعلو المنزلة، ورفعة الدرجة، وفيه من الطمأنينة، والسكينـة، والحـلاوة، وشرف النفس، وعزها، وترفعها عن تشفيها بالانتقام ـ ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام[٤].

قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عِزّاً»[٥].

وقال عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ: «أحبُّ الأمورِ إلى الله ثلاثةٌ: العفوُ عند المقدرة، والقصدُ في الجِدَة، والرفق بالعَبَدَةِ»[٦].

«وعن داود بن الزبرقان قال: قال أيوب: لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عنهم»[٧].

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٢٥٣.
(٢) انظر مدارج السالكين ٢/٣٢٨.
(٣) انظر هكذا علمتني الحياة للسباعي ١/٤٥.
(٤) انظر مدارج السالكين ٢/٣٠٣.
(٥) رواه مسلم ٤/٢٠٠١ رقم ٢٥٨٨ عن أبي هريرة.
(٦) (٧) روضة العقلاء، ص ١٣١.

وقال الشافعي - رحمه الله - :

لما عفوت ولم أحقد على أحدٍ ... أرحت نفسي من ظلم العداوات(١)

ومن جميل ما يذكر في هذا قول المقنَّع الكندي:

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختلف جدًّا
إذا قدحوا لي نارَ حربٍ بزَنْدِهِمْ ... قدحت لهم في كلِّ مكرمةٍ زندا
وإن أكلوا لحمي وَفَرْتُ لحومَهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
ولا أَحْمِلُ الحقدَ القديمَ عليهمُ ... وليس رئيسُ القوم من يحمل الحقدا(٢)

وقال محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله -:

وإني لأكسو الخلَّ حُلَّةَ سندسٍ ... إذا ما كساني من ثياب حِدَادِهِ(٣)

وعن عبدالملك أو قيس بن عبدالملك قال: «قام عمر ابن عبدالعزيز إلى قائلته، وعرض له رجل بيده طومار(٤)، فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يحبس دونه، فرماه بالطومار، فالتفت عمر، فوقع في وجهه فشجَّه.

قال: فنظرتُ إلى الدماء تسيل على وجهه وهو قائم في الشمس، فلم يبرح حتى قرأ الطومار، وأمر له بحاجته، وخلَّى سبيله»(٥).

(١) ديوان الشافعي، ص ٨٢.
(٢) روضة العقلاء، ص ١٧٣ - ١٧٤، وانظر بهجة المجالس ٢/ ٧٨٤ - ٧٨٥.
(٣) رحلة الحج إلى بيت الله الحرام بقلم محمد الأمين الشنقيطي ص ٢١٧.
(٤) الطومار: صحيفة مطوية.
(٥) الكتاب الجامع ٢/ ٤٢٣ - ٤٢٤.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ متحدثاً عن حسن الخلق والعفو، والإحسان إلى من أساء: «وما رأيت أحداً أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ.

وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه.

وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم.

وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له ـ فنهرني، وتنكر لي، واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله، فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا من الكلام.

فَسُرُّوا به، ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه»[1].

فإذا كان الأمر كذلك فإنه يجدر بالعاقل ـ كما قال ابن حبان ـ: «توطين نفسه على لزوم العفو عن الناس كافة، وترك الخروج لمجازاة الإساءة؛ إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان، ولا سبب لنماء الإساءة وتهييجها أشد من الاستعمال بمثلها»[2].

وقد يظن ظانٌّ أن العفو عن المسيء، والإحسان إليه مع القدرة عليه ـ موجب للذلة والمهانة، وأنه قد يجر إلى تطاول السفهاء.

وهذا خطأ؛ ذلك أن العفو والحلم لا يشتبه بالذلة بحال؛ فإن

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٢) روضة العقلاء، ص ١٣١.

الذلة احتمال الأذى على وجه يذهب بالكرامة.

أما الحلم فهو إغضاء الرجل عن المكروه، حيث يزيده الإغضاء في أعين الناس رفعة ومهابة.

سياسة الحلم لا بطش يكدرها فهو المهيب ولا تخشى بوادره[١]

فالعفو إسقاط حقك جوداً، وكرماً، وإحساناً مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك؛ رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق.

بخلاف الذل؛ فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً، وخوفاً، ومهانةَ نفسٍ، فهذا غير محمود، بل لعل المنتقمَ بالحق أحسنُ حالاً منه[٢].

٢١ ـ السخاء:

فالسخاء محبة ومحمدة، كما أن البخل مذمة ومبغضة، فالسخاء يجلب المودة، وينفي العداوة، ويكسب الذكر الجميل، ويخفي العيوب والمساوىء.

وإن كثرت عيوبك في البرايا وسَرَّكَ أن يكونَ لها غطاءُ
تَسَتَّرْ بالسخاء فكلُّ عيبٍ يُغَطِّيه كما قيل السخاء[٣]

فإذا ما اتصف الإنسان بالسَّخاء زكت نفسه، ولانت عريكته، وقاده ذلك إلى أن يترقى في مكارم الأخلاق ومدارج الفضيلة؛ فالسخي قريب من كل خير وبر.

ولهذا كان الأكابر يبادرون إلى تلك الخلَّة، ويحرصون كل

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ١/١٨٦.
(٢) انظر الروح لابن القيم ص ٣٥٩.
(٣) ديوان الشافعي، ص ١٦.

الحرص على اكتسابها، ويوصون غيرهم بأن يتحلى بها.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ثلاثة لا أكافئهم: رجل بدأني بالسلام، ورجل وسَّع لي في المجلس، ورجل اغبَرَّت قدماه من المشي إليَّ؛ إرادة التسليم عليَّ.

أما الرابع فلا يكافئه عني إلا الله.

قيل: من هو؟.

قال: رجل نزل به أمر، فبات ليلته يفكر بمن ينزله، ثم رآني أهلاً لحاجته فأنزلها بي»[1].

وله ـ رضي الله عنه ـ شعر في هذا المعنى يقول فيه:

إذا طارقاتُ الهمِّ ضاجَعَتِ الفتى ... وأعمل فكرَ الليلِ والليلُ عاكرُ

وباكرني في حاجةٍ لم يَجِدْ بها ... سواي ولا من نكبةِ الدهرِ ناصرُ

فرجتُ بمالي همَّه من مقامه ... وزايلَه همٌّ طروقٌ مُسامِرُ

وكان له فضلٌ عليَّ بِظنِّهِ ... بي الخيرَ إني للذي ظنَّ شاكرُ[2]

قال الرافعي ـ رحمه الله ـ:

«فمن ألزم نفسه الجود والإنفاق راضها رياضةً عمليةً كرياضة العضل بأثقال الحديد، ومعاناة القوة في الصراع ونحوه.

أما الشح فلا يناقض تلك الطبيعة، ولكنه يدعها جامدةً مستعصية، لا تلين، ولا تستجيب، ولا تتيسر»[3].

---

(١) عيون الأخبار ٤/١٧٦.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني ١/٣٧.

(٣) وحي القلم للرافعي ٣/١٤.

ومما تحسن الإشارة إليه أن السخاءَ سخاءان؛ سخاوة نفس الرجل بما في يديه، وسخاوته عما في أيدي الناس.

وتركه ما في أيدي الناس أمحض في التكرم، وأبرأ من الدنس، وأنزه من العيب.

فإن هو جمعهما، فبذل وعف فقد استكمل الجود والكرم.[1]

٢٢ ـ نسيان المعروف والإحسان إلى الناس:

وهذه مرتبة عالية، ومنزلة رفيعة، وهي أن تنسى ما يصدر منك من إحسان، حتى كأنه لم يصدر[2].

فمن أراد أن يرتقي في حسن الخلق فلينسَ ما قدم من إحسان ومعروف؛ حتى يسلم من المنة والترفع على الناس، ولأجل أن يتأهل لنيل مكارم أخرى أرفعَ وأرفعَ.

قال ابن المقفع: «إذا كانت لك عند أحد صنيعة، أو كان لك عليه طَوْل ـ فالتمس إحياءَ ذلك بإماتته، وتعظيمه بالتصغير له، ولا تقتصرنْ في قلة المن به على أن تقول: لا أذكره، ولا أصغي بسمعي إلى من يذكره؛ فإن هذا قد يستحيي مِنْه بعضُ من لا يوصف بعقل ولا كرم.

ولكن احذر أن يكون في مجالستك إياه، وما تكلمه به، أو تستعينه عليه، أو تجاريه فيه ـ شيءٌ من الاستطالة؛ فإن الاستطالة تهدم الصنيعة، وتكدر المعروف».[3]

---

(١) انظر الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٤٤، وانظر تفصيل الحديث عن السخاء في الهمة العالية للكاتب، ط٢ يصدر قريباً ـ إن شاء الله ـ.

(٢) انظر مدارج السالكين ٢/٣٢٨.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٤١ ـ ١٤٢.

٢٣ ـ الرضا بالقليل من الناس، وترك مطالبتهم بالمثل:

وذلك بأن يأخذ منهم ما سهل عليهم، وَطوَّعَتْ له به أنفسهم سماحة واختياراً، وألا يحملهم على العنت والمشقة(١).

قال ـ تعالى ـ: ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ [الأعراف، ١٩٩].

قال عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ في هذه الآية: «أمر الله نَبِيَّهُ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس»(٢).

وقال مجاهد: «يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس، مثل قبول الأعذار، والعفو، والمساهلة وترك الاستقصاء في البحث والتفتيش عن حقائق بواطنهم»(٣).

قال المقنع الكندي واصفاً حاله مع قومه:

وأعطيهم مالي إذا كنت واجداً ... وإن قَلَّ مالي لم أُكَلِّفْهُمُ رِفدا(٤)

وقال الآخر:

خذِ العفو واصفح عن أمور كثيرة ... ودع كدر الأخلاق واعمد لما صفا(٥)

«ولما قدم حاتم الأصم إلى أحمد بن حنبل قال له: أحمد بعد بشاشته به: أخبرني كيف التخلص إلى السلامة؟.

فقال له حاتم: بثلاثة أشياء.

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢/ ٢٩٠.

(٢) (٣) مدارج السالكين ٢/ ٢٩٠.

(٤) روضة العقلاء، ص ١٧٤.

(٥) عين الأدب والسياسة ص ٢٧٦.

فقال أحمد: ما هي؟

قال: تعطيهم مالك ولا تأخذ مالهم، وتقضي حقوقهم ولا تطالبهم بقضاء حقوقك، وتصبر على أذاهم ولا تؤذهم.

فقال أحمد: إنها لصعبة!.

قال حاتم: وليتك تسلم». (١)

قال الرافعي ـ رحمه الله ـ: «إن السعادة الإنسانية الصحيحة في العطاء دون الأخذ، وإن الزائفة هي الأخذ دون العطاء، وذلك آخر ما انتهت إليه فلسفة الأخلاق»(٢).

٢٤ ـ احتساب الأجر عند الله ـ عز وجل ـ:

فهذا الأمر من أعظم ما يعين على اكتساب الأخلاق الفاضلة، فهو مما يعين على الصبر، والمجاهدة، وتحمل أذى الناس؛ فإذا أيقن المسلم أن الله ـ عز وجل ـ سيجزيه على حسن خلقه ومجاهدته لنفسه ـ فإنه سيحرص على اكتساب محاسن الأخلاق، وسيهون عليه ما يلقاه في ذلك السبيل.

٢٥ ـ تَجَنّبُ الغضب:

لأن الغضب جمـرة تتقـد في القلب، وتـدعـو إلى السـطوة والانتقام والتشفي.

فإذا ما ضبط الإنسان نفسه عند الغضب، وكبح جماحها عند

---

(١) عين الأدب والسياسة ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢) وحي القلم ١٣/٣.

اشتداد سورته ـ فإنه يحفظ على نفسه عزتها وكرامتها، وينأى بها عن ذلّ الاعتذار، ومغبة الندم، ومذمة الانتقام.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «جاء رجل فقال: يا رسول الله، أوصني، فقال: **لا تغضب**، ثم ردد مراراً، قال: **لا تغضب**»[1].

قال الماوردي: «فينبغي لذي اللب السوي، والحزم القوي أن يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها، ويقابل دواعي شِرَّته بحزمه فيردها؛ ليحظى بأجل الخبرة[2]، ويسعد بحميد العاقبة»[3].

هذا ولتسكين الغضب إذا ثارت ثائرته أسباب عديدة منها[4]:

أ ـ ذكر الله ـ عز وجل ـ:

فإن ذلك يدعوه إلى الخوف منه، ويبعثه الخوف منه على الطاعة له، فيرجع إلى أدبه، ويأخذ بِنَدْبه، فعند ذلك يزول الغضب.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**واذكر ربك إذا نسيت**﴾ [الكهف، ٢٤].

«قال عكرمة: يعني إذا غضبت»[5].

ب ـ أن ينتقل عن الحالة التي هو فيها إلى حالة غيرها:

فإن الغضب يزول بتغير الأحوال، والتنقل من حال إلى حال.

---

(١) رواه البخاري ٧/٩٩ عن أبي هريرة.
(٢) هكذا وردت في الكتاب ولعل الصواب: الخيرة.
(٣) أدب الدنيا والدين، ص ٢٥٨.
(٤) انظر أدب الدنيا والدين، ص ٢٥٨ ـ ٢٦٠، وجامع العلوم والحكم لابن رجب ١/٣٦٤، وبهجة قلوب الأبرار لابن سعدي ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.
(٥) أدب الدنيا والدين، ص ٢٥٨.

جـ ـ تذكر الآثار السيئة المترتبة على الغضب.

د ـ تذكر ثواب العفو، وجزاء الصفح:

فيقهر بذلك نفسه على الغضب؛ رغبة في الجزاء والثواب، وحذراً من استحقاق الذم والعقاب.

هـ ـ تذكر انعطاف القلوب عليه، وميل النفوس إليه:

فذلك يبعثه إلى التألف، والعفو.

و ـ توطين النفس على ما يصيب من أذى الخلق:

سواء من الأذى الفعلي أو القولي، فإذا وفق العبد لذلك، وورد عليه وارد الغضب احتمله بحسن خلقه، وتلقاه بحلمه وصبره، ومعرفته بحسن عواقبه.

ز ـ ألا ينفذ غضبه بعد أن يغضب:

فإن الغضب ـ غالباً ـ لا يتمكن الإنسان من دفعه ورده، ولكنه يتمكن من ترك تنفيذه، فعليه إذا غضب أن يمنع نفسه من الأقوال، والأفعال المحرمة التي يقتضيها الغضب، فمتى منع نفسه من فعل آثار الغضب الضارة فكأنه في الحقيقة لم يغضب، وبهذا يكون العبد كامل القوة العقلية، والقوة القلبية.

«عن أبي عبلة قال: غضب عمر بن عبدالعزيز يوماً غضباً شديداً على رجلٍ فأمر به، فأحضر، وجُرِّد، وشُدَّ في الحبال، وجيء بالسياط.

فقال: خلوا سبيله، أما أني لولا أن أكون غضباناً لسُؤْتُك.

وتلا: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ [آل عمران، ١٣٤]. [1]

٢٦ ـ تجنب الجدال:

لأن الجدال يذكي العداوة، ويورث الشقاق، ويقود إلى الكذب، ويدعو إلى التشفي من الآخرين.

فإذا تجنبه المرء سلم من اللجاج، وحافظ على صفاء قلبه، وأمن من كشف عيوبه، وإطلاق لسانه في بذيء الألفاظ، وساقط القول.

ثم إن اضطر إلى الجدال فليكن جدالاً هادئاً يراد به الوصول إلى الحق، وليكن بالتي هي أحسنُ وأرفقُ.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [النحل، ١٢٥].

أما إذا لجَّ الخصم في الجدال، وعلا صوته في المجلس فإن السكوت أولى، وإن أفضل طريقة لكسب الجدال ـ حينئذٍ ـ هي تركه.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**أنا زعيم ببيت في ربض**[2] **الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيتٍ في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**»[3].

---

(١) الكتاب الجامع ٢/٤٢٣

(٢) ربض الجنة: أدناها.

(٣) رواه أبو داود (٤٨٠٠) من حديث أبي أمامة الباهلي، وصححه النووي في رياض الصالحين ص ٣٠١ وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٣/٩١١ رقم (٤٠١٥).

٢٧ ـ التواصي بحسن الخلق:

وذلـك ببث فضـائـل حسن الخلق، وبالتحذير من مساوىء الأخلاق، وبنصح المبتلين بسوء الخلق، وبتشجيع حسني الأخلاق.

فَحُسْنُ الخلقِ من الحق، والله ـ تبـارك وتعـالى ـ يقـول: ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [العصر، ٣].

٢٨ ـ قبول النصح الهادف، والنقد البناء:

فهذا مما يعين على اكتساب الأخلاق الفاضلة، ومما يبعث على التخلي عن الأخلاق الساقطة.

فعلى من نُصح أن يتقبل النصح، وأن يأخذ به؛ حتى يكمل سؤدده، وتتم مروءته، ويتناهى فضله.

بل ينبغي لمتطلب الكمال ـ خصوصاً إذا كان رأساً مطاعاً ـ أن يتقـدم إلى خواصـه، وثقاته، ومن كان يسكن إلى عقله من خدمه وحاشيته ـ فيأمرهم أن يتفقَّدوا عيوبه ونقائصه، ويطلعوه عليها، ويعلموه بها؛ فهذا مما يبعثه للتنزه من العيوب، والتطهر من دنسها.

بل ينبغي له أن يتلقى من يهـدي إليه شيئاً من عيوبه بالبشر والقبول، ويظهر له الفرح والسرور بما أطلعه عليه.

بل المستحسن أن يجيز الذي يوقفه على عيوبه أكثر مما يجيز المادح على المدح والثناء الجميل، ويشكر من ينبهه على نقصه؛ ويتحمل لومته بفعله؛ فإنه إذا لزم هذه الطريقة، وعُرِفَ بها ـ أسرع أصحابه وخواصه إلى تنبيهه على عيوبه.

وإذا نُبِّه على ما فيه من النقص أنف منه، واستشعر أن أولئك

سَيُعَيِّرونه به، ويُصَغِّرونه من أجله؛ فيلزمه حينئذٍ أن يأخذ نفسه بالتنزه من العيوب، ويقهرها على التخلص منها[١]؛ فإصلاح النفس لا يتم بتجاهل عيوبها، ولا بإلقاء الستار عليها[٢].

٢٩ ـ قيام المرء بما يسند إليه من عمل على أتم وجه:

حتى يسلم بذلك من التوبيخ، والتقريع، ومن ذل الاعتذار، ومن تكدر النفس، واعتلال الأخلاق.

٣٠ ـ التسليم بالخطأ إذا وقع، والحذر من تسويغه:

فذلك آية حسن الخلق، وعنوان علو الهمة، ثم إن فيه سلامة من الكذب، ومن الشقاق؛ فالتسليم بالخطأ فضيلة ترفع من قدر صاحبها.

٣١ ـ لزوم الرفق:

فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**»[٣].

وقال: «**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله**»[٤].

«فمن أعطي الرفق والخلق فقد أعطي الخير كله والراحة، وحسن حاله في دنياه وآخرته.

---

(١) انظر تهذيب الأخلاق للجاحظ ص ٦٠ ـ ٦١.
(٢) انظر أقوال مأثورة ص ٤٥٥.
(٣) رواه مسلم (٢٥٩٤) عن عائشة.
(٤) رواه البخاري ٧/ ٨٠ ومسلم (٢١٦٥) عن عائشة.

ومن حرم الرفق والخلق كان ذلك سبيلاً إلى كل شر وبلية إلا من عصمه الله»[1]

٣٢ ـ لزوم التواضع:

فالتواضع ـ في حقيقته ـ هو بذل الاحترام، والعطف، والمجاملة لمن يستحق ذلك[2].

فالتواضع دليل على كبر النفس، وعلو الهمة، وهو سبيل لاكتساب المعالي، والترقي في الكمالات، فهو خلق يرفع من قدر صاحبه، ويكسبه رضا أهل الفضل ومودتهم، ويبعثه على الاستفادة من كل أحد، وينأى به عن الكبر والتعالي.

٣٣ ـ استعمال المداراة:

فالناس خلقوا للاجتماع لا للعزلة، وللتعارف لا للتناكر، وللتعاون لا لينفرد كل واحد بمرافق حياته.

وللإنسان عوارضُ نفسيةٌ كالحب، والبغض، والرضا، والغضب، والاستحسان والاستهجان.

فلو سار على أن يكاشف الناس بكل ما يعرض له من هذه الشؤون في كل وقت وعلى أي حال ـ لاختل الاجتماع، ولم يحصل التعارف، وانقبضت الأيدي عن التعاون.

فكان من حكمة الله في خلقه أن هيأ الإنسان لأدب يتحامى به

---

(١) أقوال مأثورة ص ٢٢٠ عن الحلية ٣/١٨٦.

(٢) انظر رسائل الإصلاح ١/١٢٧.

ما يحدث تقاطعاً، أو يدعو إلى تخاذل، ذلك الأدب هو المداراة[١]

فالمـداراة مما يزرع المودة والألفة، ويجمع الآراء المشتتة، والقلوب المتنافرة.

«والمداراة ترجع إلى حسن اللقاء، ولين الكلام، وتجنب ما يشعر ببغض أو غضب، أو استنكار إلا في أحوال يكون الإشعار به خيراً من كتمانه.

فمن المداراة أن يجمعك بالرجل يضمر لك العداوة مجلس، فتقابله بوجه طلق، وتقضيه حق التحية، وترفق به في الخطاب»[٢].

قال أحد الحكماء:

وأمنحـه مالي وَوُدِّي ونصـرتي وإن كان مَحْنيَّ الضُّلوعِ على بُغْضي

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

إني أُحَيِّي عدوي عند رؤيته لأدفعَ الشرَّ عني بالتَّحِيَّاتِ
وأظهر البشرَ للإنسان أبغضُه كأنه قد حشا قلبي محباتِ[٣]

بل إن المداراة قد تبلغ إلى إطفاء العداوة، وقلبها إلى صداقة.

فما أحوج المرء إلى هذه الخصلة الحميدة، خصوصاً مع من لا بد له من معاشرته، أو ممن يتوقع الأذى منه.

قال ابن الحنفية: «ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لم

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ١/١٣١.
(٢) رسائل الإصلاح ١/١٣١.
(٣) ديوان الشافعي ص ٢٨ جمع الزعبي.

يجد من معاشرته بُدًّا حتى يأتيه الله منه بالفرج أو المخرج»[١].

وقال العتابي: «المداراة سياسة لطيفة، لا يستغني عنها مَلِكٌ ولا سُوْقَةٌ، يجتلبون بها المنافع، ويدفعون بها المضار، فمن كثرت مداراته كان في ذمة الحمد والسلامة»[٢].

وقال بعضهم: «ينبغي للعاقل أن يداري زمانه مداراة السابح في الماء الجاري»[٣].

وقال الحسن: «حسن السؤال نصف العلم، ومداراة الناس نصف العقل، والقصد في المعيشة نصف المؤونة»[٤].

وقال ابن حبان: «من التمس رضا جميع الناس التمس ما لا يدرك، ولكن يقصد العاقل رضا من لا يجد من معاشرته بُدًّا، وإن دفعه الوقت إلى استحسان أشياء من العادات كان يستقبحها، أو استقباح أشياء كان يستحسنها ما لم يكن مأثماً؛ فإن ذلك من المداراة، وما أكثر من دارى فلم يسلم، فكيف توجد السلامة لمن لا يداري؟»[٥].

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ:

يقول لك العقلُ الذي زيَّن الورى إذا أنت لم تَقْدِرْ عدواً فَدَارِه[٦]

---

(١) روضة العقلاء، ص ٧٠.

(٢) (٣) عين الأدب والسياسة ص ١٥٤.

(٤) عيون الأخبار ٣/٢٢.

(٥) روضة العقلاء، ص ٧١ ـ ٧٢.

(٦) ديوان الإمام علي ص ١٠٦.

هذا وسيأتي مزيد حديث عن المداراة فيما بعد؛ حتى تتضح معالمها أكثر وأكثر.

٣٤ ـ لزوم الصدق:

فإن للصدق آثاراً حميدة، وعوائد عديدة؛ فالصدق حسنة تنساق بصاحبها إلى الحسنات، فهو دليل على حسن السيرة، ونقاء السريرة، وسمو الهمة، ورجحان العقل.

فبالصدق يشرف قدر المرء، وتعلو منزلته، ويصفو باله، ويطيب عيشه؛ فهو ينجي صاحبه من رجس الكذب، ووخز الضمير، وذل الاعتذار، ويحميه من إساءة الناس إليه، ونزع الثقة منه، كما أنه يكسبه عزة وشجاعة، وثقة في النفس، فيظل موفور الكرامة، عزيز النفس، مهيب الجناب.

ولا يمكن أن يستقيم لأحد سؤدد، ولا تعلو له مكانة، ولا يحرز قبولاً في القلوب، ما لم يرزق لسان صدق.

ثم إن الصدق يهدي إلى البر، وحسن الخلق من جملة ذلك البر[1].

قال بعض البلغاء: «الصادق مصان خليل، والكاذب مهان ذليل»[2].

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ٢/١٠١ ـ ١٠٢، والكذب مظاهره ـ علاجه، للكاتب ص ٣٣ ـ ٣٨.

(٢) أدب الدنيا والدين، ص ٢٦١.

وقال بعض الشعراء:

وإذا الأمور تزاوجت ... فالصدقُ أكرمُها نتَاجا
والصدق يعقد فوق رأ ... سِ حليفه بالصدق تاجا
والصدق يقدح زندُه ... في كل ناحيةٍ سراجا[1]

وقال الآخر:

كم من حسيبٍ كريم كان ذا شرف ... قد شانه الكذِبُ وَسْطَ الحيِّ إن عمدا
وآخر كان صعلوكاً فَشَرَّفَه ... صدقُ الحديث وقول جانب الفندا
فصار هذا شريفاً فوق صاحبه ... وصار هذا وضيعاً تحته أبدا[2]

٣٥ ـ تَجَنّب كَثْرَةِ اللوم والتعنيفِ على من أساء:

فلا يحسن بالعاقل أن يسرف في لوم من أساء، خصوصاً إذا كان المسيء جاهلاً، أو كان ممن يندر وقوع الإساءة منه؛ فكثرة اللوم مدعاة للغضب، وغلظ الطبع ثم إنها موجبة للعداوة، ومجلبة لسماع ما يؤذي.

قال البحتري:

متى أحرجتَ ذا كرمٍ تَخَطَّى ... إليك ببعض أخلاق اللئيم[3]

وقال الآخر:

فَدعِ العتاب؛ فربَّ شرْ ... رٍ هاج أَوَّلُهُ العتاب[4]

---

(١) روضة العقلاء، ص ٥٣ ـ ٥٤.
(٢) روضة العقلاء، ص ٥٥.
(٣) ديوان البحتري ٢/١٧٧.
(٤) عيون الأخبار ٣/٢٩.

وإذا كان الصفح عن الزلات من أفضل خصال الحمد - فإن أحقَّ النـاس بأن تتغاضى عن هفواتهم، وتتجنب لومهم وتعنيفهم - رجـالٌ عرفت منهم المودة، ولم يَقُم لَدَيكَ شاهدٌ على أنهم صرفوا قلوبهم عنها.

فلو أخذت تعنف من إخوانك كل من صدرت منه هفوة - لم تلبث أن تفقدهم جميعاً، ولم يبق لك على ظهر الأرض صديق غير نفسك التي بين جنبيك.

والحاصل أن ما يصدر من الصديق إن كان من قبيل العثرة التي تقع في حال غفلة، أو كان خطأً في اجتهاد في الرأي - فذلك موضع الصفح والتجاوز، ولا ينبغي أن يكون له في نقض الصداقة أثر كثير أو قليل.

وأما إن كان عن زهد في الصحبة، أو انصرافاً عن الصداقة - فلك أن تزهد به، وتقطع النظر عن صداقته، وهذا موضع الاستشهاد بمثل قول الكميت:

وما أنا بالنِّكْسِ الدنيء ولا الذي إذا صدَّ عنِّي ذو المـودة يقـربُ
ولـكنـه إن دام دمت وإن يكن له مذهـب عني فلي فيه مذهبُ
ألا إن خير الـودِّ ودٌّ تطوَّعـت له النفس لا ودٌّ أتى وهـو متعب

والفرق بين عثرة قد تصدر من ذي صداقة وبين جفاء لا يكون إلا من زاهد في الصداقة - يرجع فيه الرجل إلى الدلائل التي لا يبقى معها ريب.

والتفريط في جانب الصديق ليس بالأمر الذي يستهان به؛ فلا

ينبغي الإقدام عليه دون أن تقوم على قصده لقطع المودة بيِّنةٌ واضحة؛ ذلك أن المرء لا يخلو ـ وهو معرَّض للغفلة والخطأ ـ أن يخل بشيء من واجبات الصداقة.

فإن كنت على ثقة من صفاء مودة صديقك ـ أقمت له من نفسك عذراً، وسِرْتَ في معاملته على أحسن ما تقتضيه الصداقة.

فإذا حام في قلبك شبهة أن يكون هذا الإخلال ناشئاً عن التهاون بحق الصداقة ـ فهذا موضع العتاب؛ فالعتاب يستدعي جواباً، فإن اشتمل الجواب على عذر أو اعتراف بالتقصير ـ فاقبل العذر، وقابل التقصير بصفاء خاطر، وسماحة نفس.

وعلى هذا الوجه يحمل قول الشاعر:

أعاتب ذا المودة من صديق ... إذا ما رابني منه اغتراب
إذا ذهب العتاب فليس ودٌّ ... ويبقى الود ما بقي العتاب[1]

ومما يدلك على أن صداقةَ صاحبك قد نبتت في صدر سليم أن يجد في نفسه ما يدعوه إلى عتابك، حتى إذا لقيته بقلبك النقي وجبينك الطلق ـ ذهب كل ما في نفسه، ولم يجد للعتاب داعياً.

كما قال أحدهم:

أزور محمداً وإذا التقينا ... تكلمت الضمائر في الصدور
فأرجع لم أَلُمْهُ ولم يلمني ... وقد رضي الضمير عن الضمير[2]

(١) بهجة المجالس ٢/٧٣٨.
(٢) عيون الأخبار ٣/٢٦.

فإن أكثر صاحبك من الإجحاف بحق الصداقة، ولم تجد له في هذا الإجحاف الكثير عذراً يزيل من نفسك الارتياب في صدق مودته ـ فذلك موضع قول القائل:

أَقْلِلْ عتابَ من اسْتَرَبْتَ بِوُدِّهِ   ليست تنال مودةٌ بعتاب[1]

٣٦ ـ تجنب الوقيعة في الناس:

فالوقيعة في الناس، والتعرض لعيوبهم ومغامزهم ـ مما يورث العداوة، ويشوش على القلب، فتسوء الأخلاق تبعاً لذلك.

بل إن ذلك مدعاة لأن يبحث الناس عن معايب ذلك الشخص.

ومن دعا الناسَ إلى ذمِّه   ذَمُّوه بالحق وبالباطل[2]

قالت أعرابية توصي ولدها: «إياك والتعرضَ للعيوب؛ فتتخذ غرضاً، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام.

وقلما اعتورت السهام غرضاً حتى يهيَ ما اشتد من قوته»[3].

وقال الأحنف ـ رضي الله عنه ـ: «من أسرع إلى الناس فيما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون»[4].

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ٢/١٥ ـ ١٦ لمحمد الخضر حسين ففيه تفصيل رائع لهذا الأمر؛ وانظر صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/١٦٧ ـ ١٦٧ ففيه كلام جميل للشافعي حول هذا المعنى.

(٢) بهجة المجالس ٢/٥٧٩.

(٣) الأمالي ٢/٨١، وانظر أقوال مأثورة وكلمات جميلة للصباغ ص ١٤١.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤/٩٣.

٣٧ ـ أن يضع المرء نفسه موضع خصمه:

فهذا يدعو لالتماس المعاذير، والكف عن إنفاذ الغضب، والبعد عن إساءة الظن.

فالواحد منا ـ على سبيل المثال ـ ينزعج كثيراً إذا كان خلفه في السيارة شخص يطلق الأبواق، ونحن قد نقع موقعه ونفعل ما فعله، إما حرصاً على اللحاق بموعد مهم، أو أن يكون مع بعضنا مريض، أو نحو ذلك.

فإذا وضعنا أنفسنا موضع الخصم وجدنا ما يسوغ فعله، فنُقْصِر بذلك عن الإساءة والجهل، ونحتفظ بهدوئنا وحلمنا.

قال ابن المقفع: «أعدلُ السِّيَر أن تقيسَ الناس بنفسك؛ فلا تأتي إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك»[1].

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «من أراد الانصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه؛ فإنه يلوح له وجه تعسفه»[2].

قال الخطابي ـ رحمه الله ـ:

ارضَ للناس جميعاً ... مثل ما ترضى لنفسك
إنما الناسُ جميعاً ... كلُّهم أبناءُ جنسك
فلهم نفسٌ كنفسك ... ولهم حِسٌّ كَحِسِّك[3]

---

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ٧٣.

(٢) الأخلاق والسير ص ٨٠.

(٣) أقوال مأثورة ص ٤٥٦.

٣٨ ـ أن يتخذ الناس مرآةَ لنفسه:

فهذا مما يحسن بالمرء فعلُه، والأخذ به، «فكل ما كرهه، ونفر عنه من قول، أو فعل، أو خلق ـ فَلْيَتَجَنَّبْه، وما أحبه من ذلك واستحسنه فليفعله»[1].

قال الشاعر:

إذا أعجبتك خصالُ امرىءٍ ... فَكُنْهُ تكن مثل ما يعجبك

فليس على المجد والمكرمات ... إذا جئتها حاجب يحجبك[2]

٣٩ ـ مصاحبة الأخيار وأهل الأخلاق الفاضلة:

فهذا الأمر من أعظم ما يربي على مكارم الأخلاق، وعلى رسوخها في النفس؛ فالمرء مولع بمحاكاة من حوله، شديدُ التأثر بمن يصاحبه.

والصداقة الشريفة تشبه سائر الفضائل من حيث رسوخُها في النفس، وإيتاؤها ثمراً طيباً في كل حين؛ فهي توجد من الجبان شجاعة، ومن البخيل سخاءً.

فالجبان قد تدفعه قوةُ الصداقةِ إلى أن يخوض في خطر؛ ليحمي صديقه من نكبة.

والبخيل قد تدفعه قوة الصداقة إلى أن يبذل جانباً من ماله؛ لإنقاذ صديقه من شدة.

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٣٥.

(٢) عين الأدب والسياسة ص ١١٩.

فالصداقة المتينة لا تَحُلُّ في نفس إلا هذبت أخلاقها الذميمة.

فالمتكبر تنزل به الصداقة إلى أن يتواضع لأصدقائه، وسريع الغضب تضع الصداقة في نفسه شيئاً من كظم الغيظ، فيجلس إلى أصدقائه في حلم وأناة، وربما اعتاد التواضع والحلم، فيصير بعد ذلك متواضعاً حليماً.(١)

فإذا ما وفق المرء لصحبة الأجلاء العقلاء من ذوي الدين والمروءة ـ فإن ذلك من علامات توفيقه وهدايته.

فإذا كان الأمر كذلك فما أحرى بذي اللبِّ أن يبحث عن إخوان الثقات؛ حتى يعينوه على كل خير، ويقصروه عن كل شر.

قال ابن حزم: «من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة، والبر، والصدق، وكرم العشيرة، والصبر، والوفاء، والأمانة، والحلم، وصفاء الضمائر، وصحة المودة.

ومن طلب الجاه، والمال واللذات لم يساير إلا أمثال الكلاب الكَلِبَة(٢)، والثعالب الخَلِبَة(٣)، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كل عدو المعتقد، خبيث الطبيعة»(٤).

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ٢/٨.

(٢) الكلبة: التي أصيبت بداء الكلب هو السعار.

(٣) الخلبة: الخادعة.

(٤) الأخلاق والسير، ص ٢٤، ٢٥.

٤٠ ـ الاختلاف إلى أهل الحلم والفضل وذوي المروءات:

فإذا اختلف المرء إلى هؤلاء، وأكثر من لقائهم وزيارتهم ـ ولو لم يصاحبهم باستمرار ـ تَخَلَّق بأخلاقهم، وقبس من سمتهم ودَلِّهم.

يروى أن الأحنف ابن قيس قال: «كنا نختلف إلى قيس ابن عاصم نتعلم منه الحلم كما نتعلم الفقه».(١)

ولا يلزم أن يكون هؤلاء الذين يُخْتَلف إليهم من أهل العلم، بل قد يوجد من العوام من جبل على كريم الخلال وحميد الخصال.

قال ابن حزم: «وقد رأيت من غمار العامة من يجري في الاعتدال وحميد الأخلاق إلى مالا يتقدمه فيه حكيم عالم رائض لنفسه، ولكنه قليل جداً»(٢).

٤١ ـ وبالجملة أن ينتفع الانسان بكل من خالطه وصاحبه:

فصاحب البصيرة النافذة، والهمة العالية «ينتفع بكل من خالطه وصاحبه، من كاملٍ، وناقص، وسيِّء الخلق وحَسنِه، وعديم المروءة، وغزيرها.

وكثير من الناس يتعلم المروءة ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها، كما روي عن بعض الأكابر أنه كان له مملوك سيِّء الخلق، فظ، غليظ، لا يناسبه.

فسئل عن ذلك فقال: أدرس عليه مكارم الأخلاق.

---

(١) العفو والاعتذار لأبي الحسن محمد بن عمران المعروف بابن الرقام البصري تحقيق د. عبدالقدوس أبو صالح ص ٥١٣، ٥١٤.

(٢) الأخلاق والسير ص ٢٥.

وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق في ضد أخلاقه، ويكون بتمرين النفس على مصاحبته، ومعاشرته، والصبر عليه»[١].

قال ابن حزم: «ولكل شيء فائدة، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أنه توقّد طبعي، واحتدم خاطري، وحمي فكري، وتهيج نشاطي فكان ذلك سبباً إلى تواليفَ لي عظيمةٍ.

ولولا استثارتهم نشاطي، واقتداحهم كامني - ما انبعثت لتلك التواليف»[٢].

بل إن كثيراً من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أموراً تنفعه في معاشه، وأخلاقه، وصناعته، وحربه، وحزمه، وصبره.

قيل لرجل: مَنْ عَلَّمك البكور في حوائجك أَوَّلَ النهار لا تُخِلُّ به؟ قال: من علم الطير تغدو خماصاً كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها، لا تسأم ذلك ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض.

وقيل لآخر من علمك السكون، والتحفظ، والتماوت حتى تظفر بإربك، فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته؟.

قال: الذي علم الهرة أن ترصد جحر الفأرة، فلا تتحرك، ولا تَتَلوَّى، ولا تختلج، حتى كأنها ميتة، حتى إذا برزت الفأرة وثبت عليها كالأسد.

وقيل لآخر: من علمك حسن الإيثار والبذل والسماحة؟ قال:

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٣٥.

(٢) الأخلاق والسير، ص ٤٨.

من علم الديك يصادف الحبة في الأرض، وهو يحتاج إليها ولا يأكلها، بل يستدعي الدجاج، ويطلبهن طلباً حثيثاً حتى تجيء الواحدة منهن، فتلتقطها وهو مسرور بذلك، طيب النفس به.

وإذا وضعتَ له الحبَّ الكثير فرقه هٰهنا، وهٰهنا، وإن لم يكن له دجاج؛ لأن طبعه قد أَلِفَ البذل والجودَ، فهو يرى أنه من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام!.[١]

٤٢ ـ توطين النفس على الاعتدال حال السراء والضراء:

فلقد مر بنا أن من أسباب سوء الخلق ـ الغنى، والمرضَ، والكِبَرَ، والولايةَ، والعزل.

ولهذا فإنه يحسن بالعاقل الذي يروم نيل المعالي، واكتساب الفضائل أن يوطن نفسه على الاعتدال حال السراء والضراء؛ لأن من أدب صاحب المروءة أن يقف موقف الاعتدال في حالي الضراء والسراء.

ولست بمفراحٍ إذا الدهر سرني ولا جازعٍ من صِرْفِهِ المتقلب[٢]

ومن هنا نرى أن صاحب المروءة لا تطيش به الولاية في زهو، ولا ينزل به العزل في حسرة، ولا يحمله الغنى على الأشر والبطر، ولا ينحط به الفقر إلى الذلة والخنوع.[٣]

---

(١) انظر ذلك مفصلاً في شفاء العليل لابن القيم ص ١٤٧ ـ ١٦٤.

(٢) عيون الأخبار ١/٢٧٦ و ٢٨١.

(٣) انظر رسائل الإصلاح ١٠/٢١٠.

قال الحكيم العربي:

خلقان لا أرضى اختلافهما ... تيهُ الغنى ومذلَّةُ الفقرِ
فإذا غنيت فلا تكن بطراً ... وإذا افتقرت فَتِهْ على الدهر
واصبر فلست بواجد خلقاً ... أدنى إلى فرج من الصبر[1]

وقال عبدالعزيز بن زرارة الكلابي:

كلا بلوتُ فلا النعماء تُبطرني ... ولا تَخَشَّعْتُ من لأوائها جزعا[2]

وقال عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ: «أصبحت والسراء والضراء مطيَّتان على بابي، لا أبالي على أيهما ركبت»[3].

وبهذا تستقيم أخلاق المرء، وتعتدل أفعاله وأحواله، فيسلم بذلك من التقلب واختلاف الأخلاق.[4]

٤٣ ـ معرفة أحوال الناس، ومراعاة عقولهم، ومعاملتهم بمقتضى ذلك:

فهذا الأمر دليل على جودة النظر في سياسة الأمور، وعلى حسن التصرف في تقدير وسائل الخير، وهو مما يعين على اكتساب الأخلاق الرفيعة، وعلى استبقاء المودة في قلوب الناس.

فالرجل العاقل الحكيم الحازم يُحْكِم هذا الأمر، وينتفع به عند لقائه بالطبقات المختلفة، فتراه «يَزِنُ عقولَ من يلاقونه، ويحس ما

(١) عيون الأخبار ١/٢٣٨.
(٢) مع الرعيل الأول لمحب الدين الخطيب ص ١٧٤.
(٣) الكتاب الجامع ٢/٤٣٧.
(٤) انظر تفصيل ذلك في: الهمة العالية للكاتب ط ٢.

تكن صدورهم، وتنزع إليه نفوسهم، فيصاحب الناس، ويشهد مجالسهم، وهو على بصيرة مما وراء ألسنتهم من عقولٍ، وسرائرَ، وعواطفَ.

فيتيسر له أن يسايرهم إلا أن ينحرفوا عن الرشد، ويتحامى ما يؤلمهم إلا أن يتألموا من صوت الحق.

ومراعاة عقول الناس وطباعهم ونزعاتهم فيما لا يُقْعِدُ حقاً، ولا يقيم باطلاً ـ مظهرٌ من مظاهر الإنسانية المهذبة»[1].

وكما أن هذا الأمر عائد إلى الألمعية ـ وهي في أصلها موهبة إلهية ـ فهو كذلك يأتي بالدربة، والممارسة، وتدبر سير أعاظم الرجال، والنظر في مجاري الحوادث باعتبار، فهذا مما يقوي هذه الخصلة، ويرفع من شأنها.

٤٤ ـ المحافظة على الصلاة:

فهي سبب عظيم لحسن الخلق، وطلاقة الوجه، وطيب النفس، وسموها، وترفعها عن الدنايا.

كما أنها في مقابل ذلك تنهى عن الفحشاء والمنكرِ.

وسوءُ الخلق من جملة ما تنهى عنه الصلاة.

ثم إنها سبب لعلاج أدواء النفس الكثيرة كالبخل، والشح، والحسد، والهلع، والجزع، وغيرها.

٤٥ ـ الصيام:

فبالصيام تزكو النفس، ويستقيم السلوك، وتنشأ الأخلاق

(١) رسائل الإصلاح ١/٩٥.

الرفيعة من رحمة، وكرم، وبر، وصلة، وبشاشة، وطلاقة، ونحو ذلك.

وبالصيام تعلو الهمة، وتقوى الإرادة، ويتحقق الاطمئنان.

فهذه الأمور وغيرها من أعظم ما يعين على اكتساب حسن الخلق.

٤٦ ـ قراءة القرآن بتدبر وتعقل:

فهو كتاب الهدى والنور، وهو كتاب الأخلاق الأول، وهو الذي يهدي للتي هي أقوم، وحسن الخلق من جملة ما يهدي إليه القرآن الكريم.

اقرأ على سبيل المثال سورة الإسراء، أو سورة النور، أو سورة الحجرات أو غيرها ـ تَجِدْ من الوصايا العظيمة الجامعة التي لا توجد في أي كتاب آخر، والتي لو أخذت بها البشرية لتغير مسارها، ولاستنارت سبلها، ولعاشت عيشة الهناءة والعز.

بل إن آية واحدة في القرآن جمعت مكارم الأخلاق، وهي قوله ـ تعالى ـ: **﴿خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾** [الأعراف، ١٩٩].

ثم إن القرآن يدفع النفوس إلى الكمالات، ويملؤها بعظم الهمة. «وإذا رأينا من بعض قرائه همماً ضئيلة، ونفوساً خاملة ـ فلأنهم لم يتدبروا آياتِه ولم يتفقهوا في حكمه»(١).

(١) رسائل الإصلاح ٢/٨٨.

٤٧ ـ تزكية النفس بالطاعة:

وبالجملة فإن تزكية النفس بطاعة الله ـ عز وجل ـ من أعظم ما يكسب الأخلاق الفاضلة إن لم يكن أعظمه.

قال ـ تعالى ـ: ﴿**قد أفلح من زكاها**﴾ [الشمس، ٩].

وقال: ﴿**قد أفلح من تزكى**﴾ [الأعلى، ١٤].

٤٨ ـ لزوم الحياء:

فالحياء خلق سَنِيٌّ، يبعث على فعل الجميل وترك القبيح.

فإذا تحلى المرء به انبعث إلى الفضائل، وأقصر عن الرذائل.

والحياء كله خير، والحياء لا يأتي إلا بخير، والحياء خلق الإسلام، وهو شعبة من شعب الإيمان.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[1].

وقال: «**إن لكل دين خلقاً وخلق الإسلام الحياء**»[2].

وقال: «**الحياء شعبة من شعب الإيمان**»[3].

وقال: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى ـ إذا لم تستحي فاصنع ما شئت**»[4].

قال ابن حبان: «فالواجب على العاقل لزوم الحياء؛ لأنه أصل

---

(١) رواه البخاري ٧/ ١٠٠، ومسلم ١/ ٦٤ برقم (٣٧) عن عمران بن حصين.

(٢) رواه ابن ماجة عن أنس (٤١٨١)، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٢١٤٩).

(٣) رواه البخاري ١/ ٨ ومسلم ١/ ٦٣ برقم (٣٥) عن أبي هريرة.

(٤) رواه البخاري ٧/ ١٠٠ من حديث أبي مسعود.

العقل، وبذر الخير، وتركه أصل الجهل، وبذر الشر»(١).

قال الأصمعي: «سمعت أعرابياً يقول: من كساه الحياء ثوبَه لم يرَ الناس عيبه»(٢).

٤٩ ـ إفشاء السلام:

فالسلام مدعاة للمحبة، ومجلبة للمودة، فإذا ما أفشى الناس السلام توادوا، وتحابوا، وإذا توادوا وتحابوا زكت نفوسهم، وزالت الوحشة فيما بينهم، فتحسن أخلاقهم تبعاً لذلك.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَ لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»**(٣).

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «إن مما يُصَفِّي لك ودَّ أخيك أن تبدأه بالسلام إذا لقيته، وأن تدعوه بأحب الأسماء إليه، وأن توسع له في المجلس»(٤).

٥٠ ـ إدامة النظر في السيرة النبوية:

فالسيرة النبوية تضع بين يدي قارئها أعظم صورة عرفتها الإنسانية، وأكمل هدي وخلقٍ في حياة البشرية.

---

(١) روضة العقلاء، ص ٥٦.
(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/٢٢٨.
(٣) رواه مسلم (٥٤) وأخرجه أبو داود (٥١٩٣)، والترمذي (٢٦٨٨) عن أبي هريرة.
(٤) بهجة المجالس ٢/٦٦٣.

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها ـ فَلْيَقْتَدِ بمحمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليستعمل أخلاقه، وسيره ما أمكنه، أعاننا الله على الاتساء به بِمَنِّه آمين»[1].

٥١ ـ النظر في سير الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ

فهم أعلام الهدى، ومصابيح الدجى، وهم الذين ورثوا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هديه، وسمته، وخلقه.

فالنظر في سيرهم، والاطلاع على أحوالهم ـ يبعث على التآسي بهم، والاهتداء بهديهم.

٥٢ ـ قراءة سير أهل الفضل والحلم:

فإن قراءة سيرهم، والنظر في تراجمهم مما يحرك العزيمة على اكتساب المعالي ومكارم الأخلاق؛ ذلك أن حياة أولئك تتمثل أمام القارىء، وتوحي إليه بالاقتداء بهم، والسير على منوالهم.

وكثيراً ما بعث الناس إلى محاسن الأخلاق حكايةٌ قرؤوها عن رجل فاضل، أو حادثةٌ رويت عنه.

٥٣ ـ قراءة كتب الشمائل والكتب في الأخلاق:

فإنها تنبه الإنسان على مكارم الأخلاق، وتذكره بفضلها، وتعينه على اكتسابها.

---

(١) الأخلاق والسير ص ٢٤.

كما أنها تحذره من مساوىء الأخلاق، وتبين له سوء عواقبها، وطرق التخلص منها.

قال علي بن عبدالرحمن بن هذيل: «اعلم أن الحكايات والأخبار سلوة للنفوس، وآدابٌ نافعة للرئيس والمرؤوس، والقلوب ترتاح إليها من شجونها، والآذان تصغي لسماع طرفها وفنونها، والوحيد يأنس بمطالعتها، والجليس ينبسط بمذاكرتها ومحاضرتها، والطباع تجم بها من مللها، ويذهب عنها قلة نشاطها وكثرة كسلها».(١)

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «عليكم بطرائف الأخبار؛ فإنها من علم الملوك والسادة، وبها تنال المنزلة والحظوة منهم».(٢)

وقال بعض ملوك الهند لبنيه: «أكثروا من النظر في الكتب، وازدادوا كل يوم حرفاً؛ فإن ثلاثة لا يستوحشون في غربة: الفقيه العالم، والبطل الشجاع، والحلو اللسان الكثير مخارج الرأي».(٣)

وقيل للمأمون: «ما ألذُّ الأشياء؟ قال: التنزه في عقول الناس. يعني قراءة أقوالهم».(٤)

والكتب في هذا الباب كثيرة جدًّا ومنها:

أ ـ كتاب الشمائل المحمدية للترمذي.

ب ـ كتب الأدب من الصحاح والسنن.

جـ ـ أدب الدنيا والدين للماوردي.

د ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان.

---

(١) (٢) (٣) (٤) عين الأدب والسياسة ص ١٥٨.

هـ ـ بهجة المجالس وأنس المجالس، وشحذ الذاهن والهاجس لابن عبدالبر.
و ـ عيون الأخبار لابن قتيبة.
ز ـ الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم.
ح ـ الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح.
ط ـ عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة لعلي بن عبدالرحمن بن هذيل.
ي ـ جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب للقاسمي.
ك ـ رسائل الإصلاح لمحمد الخضر حسين.

٥٤ ـ الاطلاع على الحكم المأثورة:

فالحكم أقوال مأثورة، وكلمات موجزة مؤثرة، تشتمل على رأي سديد، وحُكْم صائب، وقول ناتج عن تجربة، وخبرة، ودراية بالأمور ومجرياتها.

والحِكَمُ لا تصدر في الغالب إلا من عاقل حكيم، قد حَنَّكَتْهُ التجارب، وعَرَكَتْهُ الأيام، ووسمته بميسمها.

والحكم لها الأثر البالغ في النفوس؛ فهي تغري بالفضائل، وتبين معالمها، وترشد إلى المكارم والمعالي، وتدعو إلى اكتسابها، وتعين على التحلي بها.

ذلك أن الحِكَم وليدة التعقل، وثمرة التجربة، وعصارة الفكر.[1]

والحكمة توجد في الشعر والنثر على حد سواء.

(١) انظر الأدب العربي وتاريخه د. عبدالعزيز الفيصل ص ٢٧ و ٦٨ ـ ٦٩ و ١٦٩.

ولقد ورد عن الأسلاف من الحكم الجامعة، والوصايا النافعة ما يتعذر جمعه واستقصاؤه.

وفيما يلي ذكر لشيء من ذلك زيادة على ما ذكر في تضاعيف هذا الكتاب.

١ ـ قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «خلال المكارم عشر تكون في الرجل ولا تكون في أبيه ولا في ابنه، وقد تكون في العبد ولا تكون في سيده، يَقْسِمها الله لمن أحب: صدق الحديث، ومداراة الناس، وصلة الرحم، وحفظ الأمانة، والتذمم للجار، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، وقرى الضيف، والوفاء بالعهد، ورأسهن الحياء». (١)

٢ ـ قال الحسن ـ رحمه الله ـ: «مكارم الأخلاق للمؤمن قوةٌ في لين، وحزمٌ في دين، وإيمان في يقين، وحرص على العلم، واقتصاد في النفقة، وبذل في السعة، وقناعة في الفاقة، ورحمة للمجهود، وإعطاء في حق، وبر في استقامة». (٢)

٣ ـ قال مَصْقَلَةُ بن هبيرة الشيباني: «سمعت صعصعة بن صوحان وقد سأله ابن عباس: ما السؤدد فيكم؟
قال: إطعام الطعام، ولين الكلام، وبذل النوال، وكفُّ المرءِ نفسَه عن السؤال، والتودد للصغير والكبير، وأن يكون الناس عندك في الحق شَرَعاً(٣)». (٤)

---

(١) بهجة المجالس ٢/٦٠١ ـ ٦٠٢.
(٢) بهجة المجالس ٢/٦٠١.
(٣) شرعاً: سواء.
(٤) بهجة المجالس ٢/٦٠٢.

٤ ـ قال أبو عمرو بن العلاء: «كان أهل الجاهلية لا يُسَوِّدون إلا من كانت فيه ست خصال، وتمامها في الإسلام سابعة: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والبيان، والحسب، وفي الإسلام زيادة العفاف». (١)

٥ ـ وقال الشاعر أبو العميثل يمدح عبدالله بن طاهر، ويوصي مصعب بن عبدالله بن طاهر أن يسير على نول أبيه:

يا من يحاول أن تكونَ خِلالُه ... كخلالِ عبدِاللَّهِ أنصتْ واسمعِ
فَلأَقْصَدُنَّكَ بالنصيحة والذي ... حجَّ الحجيجُ إليه فاقْبل أَوْدَعِ
إن كنت تطمع أن تحلَّ محلَّه ... في المجد والشرف الأشم الأرفع
فاصْدُقْ وعفَّ وبرَّ وارفقْ واتَّئدْ ... واحْلُمْ ودارِ وكافِ واصبرْ واشجعِ
والطفْ ولِنْ وتَأَنَّ وانصُرْ واحتملْ ... واحْزِمْ وجدَّ وحامِ واحمل وادفعِ
هذا الطريق إلى المكارم مهيعاً ... فاسلك فقد أبصرتَ قصدَ المهيعِ (٢)

قال علي بن عبدالرحمن بن هذيل عن هذه الأبيات: «وقد جمعت هذه الأبيات خلال المكارم، وموجبات السؤدد، وتفاريق المروءة». (٣)

٦ ـ وقيل لقيس بن عاصم: «بِمَ سوَّدك قومك؟.
قال: بكفِّ الأذى، وبذل الندى، ونصرة المولى». (٤)

---

(١) بهجة المجالس ٢/٦٠٣ ـ ٦٠٤ وروضة العقلاء ص ٢٧٤ وعين الأدب والسياسة ص ١١٣.
(٢) بهجة المجالس ٢/٦١٥ وعين الأدب والسياسة ص ١١٥.
(٣) عين الأدب والسياسة ص ١١٥.
(٤) عين الأدب والسياسة ص ١١٣.

٧ ـ وقيل في وصف المكارم:

إن المكارمَ أخلاقٌ مُطَهَّرةٌ فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها والصبر خامسها والصدق ساديها
والشكر سابعها والجود ثامنها والرفق تاسعها واللين عاشيها[١]

٨ ـ وقيل في وصف المروءة: «المروءة إنصاف الرجل من هو دونه، والسمو إلى من هو فوقه، والجزاء بما أوتي إليه». [٢]

٩ ـ وقيل: «مروءة الرجل صدق لسانه، واحتمال عثرات جيرانه، وبذل المعروف لأهل زمانه، وكفه الأذى عن أباعده وجيرانه». [٣]

١٠ـ وقيل: «المروءة إذا أعطيتَ شكرتَ، وإذا ابتليت صبرتَ، وإذا قدرت غفرتَ، وإذا وعدت أنجزت». [٤]

١١ـ وقيل: «المروءة حسن العشرة، وحفظ الفرج واللسان، وترك المرء ما يعاب به». [٥]

١٢ـ قال حكيم لحكيم: «ما السؤدد؟ فقال: اصطناع العشيرة، واحتمال الجريرة.

قال: فما الشرف؟

قال: كف الأذى، وبذل الندى.

قال: فما الثناء؟

قال: استعمال الأدب، ورعاية الحسب.

قال: فما المجد؟

---

(١) عين الأدب والسياسة ص ١٠٣.

(٢) (٣) (٤) (٥) عين الأدب والسياسة ص ٢٣١.

قال: احتمال المغارم، وابتناء المكارم.

قال: فما المروءة؟

قال: عرفان الحق، وتعاهد الصنيعة.

وقال: فما السماحة؟

فقال: حب السائل، وبذل النائل.

قال: فما الكرم؟

فقال: صدق الإخاء في الشدة والرخاء». (١)

٥٥ ـ معرفة الأمثال السائرة:

فالأمثال أقوال موجزة، تُشَبِّه حالاً مُشاهَدةً منظورة بأحوال سابقة، والذي يجمع بين الحال السابقة والحال القائمة هوالمماثلة.

هذا وللأمثال أثر في النفوس، وسيرورة في الناس؛ فهي تبعث على العمل، وتَقَوِّم السلوك، وتضيء السبل، وتهدي في معترك الحياة.

وذلك بسبب ما تتضمنه من توجيه أو تنبيه أو تعليم؛ فالعاقل يسترشد إذاسمع المثل، والغافل يتذكر بالمثل ما مضى من حوادث التاريخ، وهكذا. . .

وللأمثال أهداف تربوية وخلقية بما تدعو إليه من قيم نبيلة، ومثل عليا، وبما ترسمه للمرء في حياته من أنواع السلوك الحميد، والاحتياط للأمور، وحسن التصرف فيها، وبما تنهى عنه من السلوك السيِّىء، والتصرفات الشائنة.

(١) عين الأدب والسياسة ص ١٠٥.

ذلـك أن الأمثال خفيفة الظل، سريعة الحفظ، تمزج الهزل بالجد، وتشير إلى ما تريد بطرف خفي، فتعالج كثيراً من الأمور بكلام يسير يصل إلى أعماق النفس.

وما من موقف يمر به الإنسان في حياته إلا ويجد من الأمثال ما يعبر عنه، ويُهَوِّن عليه بلاءه، أو يخفف من غلوائه، أو يوجهه الوجهة الصحيحة التي تقوم سلوكه، فَتُحَبِّبُه في الجميل، وتنفره من القبيح.(١)

قال علي بن عبدالرحمن بن هذيل: «وليس يكمل أدب المرء حتى يعرف المثل السائر، والبيت النادر، وما يحكى عن أهل العصور من الأخبار العجيبة، وما وقع لهم من الألفاظ البليغة، والمعاني الغريبة.

ففي ذلك العلمُ بالأمور، والعقل المكتسب، والأدب الصادر عن ذي المروءة والحسب».(٢)

هذا وعند العرب رصيد ضخم من الأمثال لا يحويه كتاب، ولا يستوفيه مصنف.

ومما ورد عنهم من الأمثال مما يعين على مكارم الأخلاق مايلي:

١ ـ إياك وأن يضربَ لسانُكَ عُنُقَكَ.

أي إياك أن تلفظ بما فيه هلاكك.(٣)

---

(١) انـظر معجم الأمثـال العربية د. محمود صيني وناصف عبدالعزيز ومصطفى سليمان ص ع ـ ف من المقدمة، والأدب العربي د. عبدالعزيز الفيصل ص ٢٧ و ١٦٨.

(٢) عين الأدب والسياسة ص ١٥٩.

(٣) الأمثال لأبي عبيد ص ٤١ ومجمع الأمثال للميداني ١/٨٨.

٢ ـ إياكَ وما يُعْتَذَر منه.

أي لا ترتكب أمراً تحتاج فيه إلى الاعتذار. (١)

٣ ـ تعجيل العقاب سفه.

أي أن الحليم لا يعجل بالعقوبة. (٢)

٤ ـ خير الناس هذا النمط الأوسط.

يعني بين المُقَصِّر والغالي. (٣)

٥ ـ تُقَطِّع أعناقَ الرجالِ المطامعُ.

يضرب في ذم الجشع. (٤)

٦ ـ الخطأُ زادُ العَجُول.

يعني قلَّ من عجل في أمر إلا أخطأ قصد السبيل. (٥)

٧ ـ خير الغنى القُنوع، وشر الفقر الخضوع. (٦)

٨ ـ ضربَ وجهَ الأمر وعينَه.

يضرب لمن يداور الأمور، ويُقلِّبها ظهراً لبطن؛ من حسن التدبير. (٧)

---

(١) الأمثال ص ٦٤ ومجمع الأمثال ١/٧٣.
(٢) مجمع الأمثال ١/٢١٨.
(٣) مجمع الأمثال ١/٤٣٢.
(٤) مجمع الأمثال ١/٢٥١ والمستقصي من أمثال العرب للزمخشري ٢/٣٠.
(٥) مجمع الأمثال ١/٤٣٢.
(٦) مجمع الأمثال ١/٤٣١.
(٧) مجمع الأمثال ٢/٢٦٢.

٩ ـ المشاورة قبل المثاورة. [1]

١٠ـ المداراة ملاك قوام المعاشرة، وملاك المعاشرة. [2]

١١ـ سَبَّك من بَلَّغك السبَّ.

أي من واجهك بما قفاك به غيره فهو الشاتم. [3]

١٢ـ إذا أراد أحدكم أمراً فعليه بالتؤدة. [4]

١٣ـ إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون. [5]

١٤ـ الانقباض عن الناس مَكْسَبَةٌ للعداوة، وإفراط الأنس مكسبة لقرناء السوء. [6]

١٥ـ إن من ابتغاء الخيرِ اتقاءَ الشرِّ. [7]

١٦ـ ليس من العدل سرعةُ العذل. [8]

هذا ما تيسر جمعه وتقييده من الأسباب والأمور المعينة على اكتساب حسن الخلق.

---

(٢) (١) مجمع الأمثال ٣/٢٩٢.
(٣) المستقصي ٢/١١٥.
(٤) الأمثال ص ٢٣٣.
(٥) الأمثال ص ٢٣٧.
(٦) الأمثال ص ٢٠٢.
(٧) الأمثال ص ١٥٩.
(٨) الأمثال ص ٢٦٧.

الفصل الثالث
أمور تتعلق بالأخلاق

المبحث الأول: بين المداراة والمداهنة

«حدود الفضائل تقع بمقربة من أخلاق مكروهة، وهذه الحدود في نفسها واضحة جلية، إلا أن تمييز ما يدخل فيها مما هو خارج عنها يحتاج إلى صفاء فطرة، أو تربية تساس بها النفس شيئاً فشيئاً.

وكثيراً ما يتشابه على الرجل لأول النظر أمور، فلا يدري أهي داخلة في الفضيلة أم هي خارجة عن حدودها.

وربما سبق ظنه إلى غير صواب، فيخال ماهو من قبيل الفضيلة مكروهاً فيدعه، أو يعيب غيره به، أو يخال ما هو من قبيل المكروه فضيلة فيرتكبه، أو يمدح غيره عليه»[1].

وهذا الشأن يجري في كثير من الأخلاق، ومن ذلك خلق المداراة؛ إذ يشتبه عند كثير من الناس بخلق المداهنة مع أنه يمتاز عنه امتياز الصبح من الدجى.

وبما أن الحديث في هذا الكتاب عن الأخلاق، وبما أن المداراة خلق فاضل يحتاجه العاقل في حياته، وبما أن المداهنة خلق دنيء يزري بصاحبه، وينزل به إلى درك وسقوط ـ فإن معرفة المداراة وتمييزها عن المداهنة من الأهمية بمكان؛ حتى يسلك العاقل طريق المداراة، وينأى بنفسه عن طريق المداهنة.

(١) رسائل الإصلاح ١/١٢٤.

معالم المداراة

فيما يلي ذكر لبعض المعالم التي تميز المداراة عن المداهنة(١).

١ ـ المداراة صدقة وفضيلة، والمداهنة خطيئة ورذيلة.

٢ ـ المداراة ترجع إلى حسن اللقاء، وطيب الكلام، والتودد للناس، وتَجَنُّبِ ما يشعر بغضب أو سخط أو ملالة، كل ذلك من غير ثلم للدين في جهة من الجهات.

قال ابن بطال ـ رحمه الله ـ: «المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة»(٢).

٣ ـ من المداراة أن يلاقيك ذو لسان أو قلم عرف بنهش الأعراض، ولمز الأبرياء، فتطلق له جبينك، وتحييه في حفاوة؛ لعلك تحمي جانبك من قذفه، أو تجعل لدغاتِهِ خفيفةَ الوقع على عرضك.

نقرأ في الصحيح عن عروة بن الزبير أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أخبرته: «أنه استأذن على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجل فقال:

---

(١) انظر روضة العقلاء، ص ٧٠ ـ ٧١ وانظر فتح الباري ١٠/٥٤٤ ـ ٥٤٥ وعين الأدب والسياسة ص ١٥٢ ـ ١٥٧، والدعوة للإصلاح لمحمد الخضر حسين ص ٥٠ـ٥٢ و ٧٤، ورسائل الإصلاح ١/١٣١ ـ ١٣٨، و ٢/١٠٠، ففيه تفصيل جميل رائع.

(٢) فتح الباري ١٠/٥٤٥.

«ائذنوا له فبئس ابن العشيرة»، أو «بئس أخو العشيرة».

فلما دخل ألان له الكلام، وفي رواية «فلما جلس تَطَلَّق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في وجهه، وانبسط إليه، فقلت: يا رسول الله، قلت ما قلت، ثم ألنت له القول!.

فقال: «أيْ عائشةُ، إن شرَّ الناس منزلةً عند الله من تركه أو وَدَعَهُ الناسُ اتقاءَ فُحْشِهِ»(١).

فلقاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذا الرجل المعروف بالبذاء ـ من قبيل المداراة؛ لأنه لم يزد على أن لاقاه بوجه طلق، أو رفق به في الخطاب.

وقد سبق إلى ذهن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن الذي بلغ أن يقال فيه «بئس ابن العشيرة» لا يستحق هذا اللقاء، ويجب أن يكون نصيبه قسوة الخطاب، وعبوس الجبين.

ولكن نظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبعد مدىً، وأناته أطول أمداً؛ فهو يريد تعليم الناس كيف يملكون ما في أنفسهم، فلا يَظْهَرُ إلا في مكان أو زمان يليق فيه إظهاره.

ويريد تعليمهم أدباً من آداب الاجتماع، وهو رفق الإنسان بمن يقصد إلى زيارته في منزله، ولو كان شره في الناس فاشياً.

على أن إطلاقك جَبِيْنَك لمثل هذا الزائر لا يمنعك من أن تشعره بطريق سائغ أنك غيرُ راض عما يشيعه في الناس من أذىً،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٧/٢ عن عائشة.

ولا يعوقك عن أن تعالجه بالموعظة الحسنة إلا أن يكون شيطاناً مريداً.

٤ ـ من المداراة أن تلقى ذا يدٍ باطشة، فتمنحه جبيناً طلقاً، وتتجنب في حديثك ما لا يكون له أثر في نفسه إلا أن يثير القصد إلى أذيتك.

وهذا محمل قول أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: «إنا لنكشر[1] في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم»[2].

وفي هذا الأثر شاهد على أن التبسم في وجه الظالم اتقاء بأسه ـ ضرب من المداراة، ولا يتعداه إلى أن يكون مداهنة.

«قال محمد بن أبي الفضل: قلت لأبي: لِمَ نجلسُ إلى فلان، وقد عرفت عداوته؟.

قال: أخبي ناراً، وأقدح عن وُدٍّ»[3].

وقال المهاجر بن عبدالله:

وإني لأقصي المرء من غير بغضة ... وأدني أخا البغضاء مني على عمدِ
ليُحدِثَ وداً بعد بغضاء أو أرى ... له مصرعاً يردي به الله من يردي[4]

«وقال عقال بن شَبَّة: كنت رديف أبي، فلقيه جرير على بغل فحياه أبي وألطفه.

---

(١) نكشر: نضحك.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٢/٧ معلقًا بصيغة التمريض، وله طرق أخرجها الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق ١٠٢/٥ وفي كل منها مقال، ولعل بعضها يشد بعضًا فيكون السند حسنًا لغيره.
(٣) (٤) عيون الأخبار ٢٢/٣.

فلما مضى قلت: أبعدما قال لنا ما قال؟.

قال أبي: أفأُوَسِّعُ جرحي؟»[١].

٥ ـ ومن المداراة التلطف في الاعتذار: وذلك أن يكون الرجل على حالة تقتضي صرفه عن بغية أو عمل، وتعرف أن في الاعتذار له بهذا الحال ما يثير في نفسه ألماً، فتعرض عن ذكر ما يؤلم، وتذكر له وجهاً غيره مما هو واقع فيه؛ حتى لا تجمع له بين الحرمان من بغيته وإيلامه بما لا يحب أن يعتذر له به.

٦ ـ من المداراة أن تخالط الناس، فتسايرهم بالخير، وتعاشرهم بالمعروف، وتزايلهم بالشر، وتفارقهم بالمنكر.

وقد جاء في المثل السائر الذي ورد من السلف: «خالطوا الناس وزايلوهم».

أي عاشروهم في الأفعال الصالحة، وزايلوهم في الأفعال المذمومة.[٢]

٧ ـ من المداراة أن ترميك الغربةُ في بلدٍ ما، فتجد أن خلائق أهلها وعاداتهم على غير ما تعرف، فتترك كثيراً مما كنت تعرف، وتأخذ بما يعرفون؛ فإن ذلك من حسن المداراة.

فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم[٣]

وكل هذا مشروط بألا يكون فيما تأتي أو تذر محذور شرعي؛

(١) عيون الأخبار ٣/٢٢.

(٢) الأمثال ص ١٥٧ ومجمع الأمثال ١/٤٣٠.

(٣) عين الأدب والسياسة ص ١٥٥.

فإن كان ثَمَّ محذور شرعي تَعَيَّنَ تقديمُ الأمر الشرعي على كل عادة وعرف.

هذا وقد علم بالتَّتَبُّع والاستقراء أن كل عرف خالف الشرع فإنه ناقص مختل، وهذه قاعدة مطردة لا تُنتقض.[1]

٨ ـ من المداراة أن تسعى لتطلاب حقك، أو إدراك حاجتك، فلا تقدر على ذلك بالغلبة والاستعلاء، فتلجأ إلى الترفق، وحسن المداراة، والعرب تقول: «إذا لم تغلبْ فاخْلِبْ».[2]

٩ ـ المداراة يبتغى بها رضا الناس، وتأليفهم في حدود ما ينبغي أن يكون، فلا يبعدك عنها قضاء بالقسط، أو إلقاء للنصيحة في رفق.

١٠ ـ المداراة ترجع إلى ذكاء الشخص وحكمته؛ فهو الذي يراعي في مقدارها وطريقتها ما ينبغي أن يكون؛ ذلك أن لأسباب العداوة مدخلاً في تفاوت مقادير المداراة واختلاف طرقها.

فإذا ساغ لك أن تبالغ في مداراة من ينحرف عنك لخطأ في ظن يظنه بك، أو لعدم ارتياحه لنعمة يسوقها الله إليك ـ فَلِمُداراةِ من يحارب الحق والفضيلة ـ إن صادفك، واقتضى الحال مداراته ـ حد قريب، ومسحة من التلطف خفيفة.

كما ينبغي أن تكون مداراتك لمن ترجو العود منه إلى الرشد، وتأنس من فطرته شيئاً من الطيب ـ فوق مداراتك لمن شاب على عوج العقل، ولؤم الخلق، حتى انقطع أملك من أن يصير ذا عقل سليم، أو خلق كريم.

---

(١) انظر الرياض الناضرة ص ٢٨٤.

(٢) الأمثال لأبي عبيد ص ١٥٦.

ثم إن لك مع من فيه بقيةٌ من العقل ضرباً من المداراة لا تسلكه مع من يَعُدُّ مداراتك له أثر الخوف من سلاطة لسانه، فيزداد فحشاً، ليزداد الناس رهبة، فيزيدوه خضوعاً.

١١ ـ من المداراة أن تثني على الرجل بما فيه إذا قصدت من ذلك أن تحمله إلى ماهو أرفع، أو أن تُقْصِرَه عما هو فيه من القبيح.

١٢ ـ ومن المداراة أن تُذَكِّرَ المرء بسالف مجد آبائه؛ حتى تبعثه إلى اتباعهم، والسير على نولهم.

١٣ ـ ومن المداراة أن تحرك في الشخص نخوته، وشيمته، ومروءته.

١٤ ـ من المداراة أن تسعى بالصلح بين اثنين، فتنمي ما قاله كلُّ واحدٍ منهما في صاحبه من خير، وتغض الطرف عما قالاه في بعض من سوء.

١٥ ـ من المداراة أن تعمد إلى إلقاء النصيحة على قوم حادوا عن الرشد، أو وقعوا في مخالفة ما، فلا تستهلَّ حديثك بمواجهتهم بما يكرهون؛ خشية نفورهم أو إعراضهم.

وإنما تبتدىء بما يخف على المخاطبين سماعُه من المعاني الحائمة حول الغرض، ثم تعبر عن المعنى المراد بلفظ مجمل، ثم تدنو من إيضاحه شيئاً فشيئاً؛ حتى لا تفصحَ عنه إلا وقد ألِفَتْه نفوسُهم، وهدأت إليه خواطرهم؛ فذلك التدرج من حسن السياسة، وجميل المداراة.

١٦ ـ من المداراة أن تُعَرِّض بالشيء وأنت تريد غيره، من باب

قول العرب في المثل المشهور: «إياكِ أعني واسمعي يا جارة».[1]

مثال ذلك أن تتعمد رجلاً بالنصيحة، فتخشى باردة غضبه، إن أنت كاشفته بخطئه، فتسلك في نصحه سبلاً أخرى، دون أن تثير غضبه، أو تمس كبرياءه، أو أن تخجله لكونك اطلعت على خطئه.

فبدلاً من مواجهته مباشرة بإمكانك أن تداريه، وتوصل له ما تريد بعدة طرق لا يشعر معها أنك تريد نصحه.

منها أن تذكر له حالة أخرى مشابهة لحالته، وقد حدثت لشخص آخر وقع فيما وقع به صاحبك من خطأ، ثم تَخْلُص من ذلك إلى ذم ذلك الخطأ، وتقبيحه، والتنفير منه، والتحذير من الوقوع فيه.

ومنها أن تستحثه على نصح فلان من الناس؛ وقع في ذلك الخطأ، ثم تبين له وجه ذلك الخطأ وسبل علاجه.

ومنها أن تستشيره في علاج ذلك الخطأ؛ لِفُشُوِّه في الناس، ثم تنفذ من خلال ذلك إلى بيان خطئه، وإشعاره بخطره وضرره.

أو نحو ذلك من الطرق المناسبة، التي لا تريد من خلالها سوى لفت نظر صاحبك، وإشعاره بخطئه من طرف خفي.

١٧ ـ من المداراة أن تعرف أن أناساً بأعيانهم قد وقعوا في مخالفة ما، فترغب أن ترشدهم إلى الصواب، وتلفت أنظارهم إلى ما هم فيه من الخطأ، فتتحامى ذكر أسمائهم بأعيانهم؛ خشية نفورهم وإعراضهم، فتلجأ إلى التعريض بهم من باب «ما بال أقوام».

فتشير إلى أن هناك ملاحظةً حول أمر ما، وهي كذا وكذا، أو

(١) الأمثال لأبي عبيد ص ٦٥.

تقول: إن أناساً يعملون كذا وكذا وهم مجانبون للصواب في عملهم هذا.

ويومىء إلى هذا الأسلوب ما كان يفعله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما يبلغه من بعض أصحابه أنهم وقعوا في خطأ، فيسلك ـ عليه الصلاة والسلام ـ أحياناً هذه الطريقة في علاج الخطأ.

جاء في صحيح البخاري أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة»**.(١)

وقال: **«ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله»**.(٢)

وقال: **«ما بال دعوى أهل الجاهلية»**.(٣)

وقال: **«ما بال العامل نبعثه، فيأتي فيقول هذا لك وهذا...»**.(٤)

١٨ ـ من المداراة استعمال المعاريض إذا دعت الحاجة، واقتضت الحكمة؛ فقد يلاقي الإنسان حالاً ترغمه على أن ينطق بما يكره، ويسلك في القول ما لم يألف.

فلو عَرَضَتْ على وجه الندرة حال يكون حديث الرجل فيها على نحو ما يعلم جالباً عليه أو على غيره ضرراً فاحشاً ـ لوجد في نظام الأخلاق مرونةً تسمح له أن يصوغ حديثه في أسلوب لا يجلب ضرراً.

فإذا وقع الإنسان في حال لا يليق معها التصريح بأمر واقع، ولم يكن بد من أن يقول في شأنه شيئاً ـ فها هنا يفسح له أن يأخذ بالمعاريض.

---

(١) البخاري ١/١٨٣.
(٢) البخاري ١/١١٧.
(٣) البخاري ١/١٦٠.
(٤) البخاري ٨/١١٤.

وهي ألفاظ محتملة لمعنيين؛ يفهم السامع منها معنى، ويريد المتكلم منها معنى آخر.

وإن شئت فقل: هي ألفاظ ذات وجهين: أحدهما غير حقيقة، وهو ما يسبق إلى فهم المخاطب. وثانيهما حقيقة، وهو ما يقصده المتكلم.

وهذا ما يفعله الذين أشربوا صدق اللهجة، متى عرفوا أن في القول الصريح حرجاً أو خطراً.

١٩ ـ من المداراة أن يوجه الداعي أو الناصح الإنكار إلى نفسه وهو يعني السامع.

قال ـ تعالى ـ فيما يقصه عن مؤمن آل ياسين حين أراد دعوة قومه إلى عبادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: **﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون﴾** [يس: ٢٢].

فإنه إن أراد تقريع المخاطبين؛ إذ أعرضوا عن عبادة خالقهم، وعكفوا على عبادة مالا يغني عنهم شيئاً، فأورد الكلام في صورة الإنكار على نفسه؛ تلطفاً في الخطاب، وإظهاراً للخلوص في النصيحة؛ حيث اختار لهم ما يختاره لنفسه.

٢٠ ـ وبالجملة فالمداراة خصلة كريمة، يحكمها الأذكياء، ولا يتعدى حدودها الفضلاء؛ فالنفوس المطبوعة على المداراة نفوس أدركت أن الناس خلقوا ليكونوا في الائتلاف كالجسد الواحد، وشأن الأعضاء السليمة أن تكون ملتئمة على قدر ما فيها من حياة، ولا تنكر عضواً رُكِّب معها في جسد إلا أن يصاب بعلة يعجز الأطباء أن يصفوا له بَعْدُ دواءً.

معالم المداهنة

وبعد أن اتضحت بعض معالم المداراة يحسن أن توضح بعض معالم المداهنة؛ لأن الأشياء إنما تتميز بضدها، فإليك أيها القارىء بعض تلك المعالم.

١ ـ المداهنة هي إظهار الرضا بما يصدر من الظالم أو الفاسق من قول باطل، أو عمل مكروهٍ، فهي بلادة في النفس، واستكانة للهوى، وقبول ما لا يرضى به ذو دين، أو عقل، أو مروءة.

وأصل المداهنة من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء، ويستر باطنه.

٢ ـ المداهنة خلق قذر، لا ينحط فيه إلا مَنْ قَلَّ في العلم وزنُه، أو من نشأ نشأةَ صغار ومهانةٍ.

٣ ـ تضم المداهنة بين جناحيها الكذب، وإخلاف الوعد.

أما الكذب فلأن المداهن يصف الرجل بغير ما يعرفه منه، ومن دخل الكذب من باب سهل عليه أن يأتيه من أبواب متفرقة.

وأما إخلاف الوعد فلأن المداهن يقصد إلى إرضاء صاحبه في الحال، فلا يبالي أن يعده بشيء وهو عازم على أن لا يصدق في وعده.

٤ ـ ليس من الصعب على المداهن وقد مرد على الكذب أن يخلف الوعد، ويختلق لإخلافه عذراً، وهذا الاختلاف لا يرتكبه الراسخ في كرم وإن كلفه الوفاء بالوعد أمراً جللاً.

قال المثقب العبدي:

حسنٌ قول نعم من بعد لا وقبيحٌ قول لا بعد نعم
إن لا بعد نعم فاحشة فبـ «لا» فابدأ إذا خفت الندم
وإذا قلت نعم فاصبر لها بنجاح القول إن الخلف ذم
واعلم أن الذم نقص للفتى ومتى لا يَتّقِ الذمَّ يذم[1]

٥ ـ المداهن لا يتريث في أن يعد؛ لأنه لا يتألم من أن يخلف، ولا يصعب عليه أن يصور من غير الواقع عذراً.

أما الراسخ في الفضل فلا يَعِد إلا عند العزم على أن يصدق فيما وعد، فإن وقف أمامه عائق كشف لك عن وجهه الحق، فإذا لم يساعده الحال على إنجاز الوعد لم يَفُتْهُ الصدق فيما يلقيه إليك من عذر.

٦ ـ من المداهنة أن تثني على الرجل في وجهه، فإذا انصرفت عنه أطلقت لسانك في ذمه.

٧ ـ من المداهنة أن يدخل الرجل على من يضطره الحال إلى الثناء عليه مع استغنائه عن الدخول عليه، ثم يبدأ بالثناء عليه وإطرائه.

أما إذا اضطر إلى الدخول على ذي قوة لا يخلص من بأسه إلا أن يسمعه شيئاً من الإطراء ـ فهو في سعة أن يطريه بمقدار ما يخلص من بأسه، ولا تُلْحِقُه هذه الحالةُ بزمرة المداهنين.

---

(١) المفضليات للمفضل الضبي تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون ص ٢٩٣.

٨ ـ من المداهنة ـ بل من أسوأ المداهنة ـ أن يلاقي المداهن الرجلين بينهما عداوة، فيغري بعضهما ببعض، ويظهر لكل واحد منهما الرضا عن معاداته لصاحبه، ويوافقه على دعوى أنه المحق، وأن صاحبه المبطل.

٩ ـ من المداهنة أن يجعل المداهن لسانه طوع بغية الوجيه:

فتراه يسبق هوى الوجيه، ويعجل إلى قول ما يشتهيه الوجيه، فيمدح ما يراه الوجيه حسناً، ويذم ما يراه الوجيه سيئاً، بغض النظر عن قناعة هذا المداهن من عدمها.

قال شوقي في إحدى حكاياته الشعرية قصيدة عنوانها «نديم الباذنجان» قال فيها:

كان لسلطانٍ نديمٌ وافِ ... يُعيد ما قال بلا اختلاف
وقد يزيد في الثنا عليه ... إذا رأى شيْئاً حلا لديه
وكان مولاه يرى ويعلمُ ... ويسمع التَّمْليقَ لكن يكتم
فجلسا يوماً على الخِوَان[1] ... وجيء في الأكل بباذنجان
فأكل السلطانُ منه ما أكل ... فقال: هذا في المذاق كالعسل
قال النديم: صدق السلطانُ ... لا يستوي شَهْدٌ[2] وباذنجان
هذا الذي غنى به الرئيس[3] ... وقال فيه الشعر جالينوسُ
يذهب ألف عِلَّةٍ وعِلَّهْ ... ويبرد الصدر ويشفي الغُلَّهْ
قال[4]: ولكن عنده مرارهْ ... وما حمدت مرة آثاره

(١) الخوان: المأدبة.
(٢) الشهد: العسل.
(٣) الرئيس: ابن سينا.
(٤) يعني السلطان.

قال: نعــم مرٌّ وهــذا عيبــه ... مذ كنــتُ يا مولاي لا أحبــه
هذا الــذي مات به بُقْــراطُ ... وسُمَّ في الكــأس به سقــراط
فالتفت السلطان فيمن حولــه ... وقــال: كيف تجــدون قولــه
قال النـديم: يا مليكَ النـاسِ ... عذراً فمــا في فعلتي من باس
جعـلت كي أنــادم السلطانــا ... ولـم أنــادم قط باذنجــانــا[1]

هذه هي حال أهــل المــداهنــة، يراوغـون، ويخــاتلون، ويخادعون ويكذبون، ويسترون وجه الحقيقة الأبلج، ولا يبالون بما يترتب على ذلك من عواقب.

أما الذين يعرفون ما في المداهنة من شر، ويحزنهم أن يظهر الشر على من في استطاعته الخير ـ فيربأون بألسنتهم أن تساير في غير حق، ويؤثرون نصح الوجيه على أن يزينوا له ما ليس بزين؛ لعلمهم بأن المداهنة خيانة، وتفريط في أداء الأمانة، وأنها ضرر محض على أصحابها، وعلى من يسايرونه في باطله.

ثم إن الوجيه الحازم يكره المداهنة، ويملأ عينيه باحترام من يوقظه لوجه الخير إذا كان في غفلة منه، ولوجه الشر إذا اشتبه عليه.

كذلك من عظماء الرجال من يبغض المداهنة، ولا يقبل من جليسه مبالغة في مدح، أو مسايرة في باطل.

والأجـلاء من علمـاء الـدين، الـذين كانـوا يداخلون رجـال السياسـة، فينعقـد بينهـم التئـام أو صداقـة ـ كانـوا يأخـذون بسنـة

---

(١) الشوقيات ١٢١/٤.

المداراة، ولم يكونوا فيما نقرأ عنهم يتلطخون برجس المداهنة.

وما شاعت المداهنة في جماعة إلا تَقَلَّصَت الكرامة في ديارهم، وكانت الاستكانة شعارهم ودثارهم.

ومن ضاعت كرامتهم، وداخلت الاستكانة نفوسهم ـ جالت أيدي البغاة في حقوقهم، وكان الموت أقرب إليهم من حبال أوردتهم.

وإذا كان الأمر كذلك فإن من واجب أساتذة التربية ودعاة الإصلاح أن يُعْنوا بجهاد هذا الخلق المشؤوم حتى ينفوه من أرضنا، وتكون أوطاننا ومدارسنا منابت نشيء يميزون المداهنة من المداراة، فيخاطبون الناس في رقة، وأدب، وشجاعة، ويحترمون من لا يلوث أسماعهم بالملق، ولا يكتمهم الحقائق، متى اتسع المقام لأن يحدثهم بصراحة.

المبحث الثاني: مقتطفات من أخلاق النبوة

نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو خير البرية، وأزكى البشرية، وأعلاها رتبة، وأجلها قدراً، وأحسنها خلقاً وأكرمها على الله ـ تبارك وتعالى ـ.

اختاره الله على علم، وأكرمه بالرسالة، وأيده بالوحي.

جبله على حميد الخلال، وفطره على كريم الخصال، ثم أدبه فأحسن تأديبه، ورباه فأحسن تربيته، فكان خلقه القرآن، كما قالت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ عندما سئلت عن خلقه[1].

وإنما أدبه القرآن بمثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف، ١٩٩]، وقوله: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القرى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ [النحل، ٩٠]، وقوله: ﴿واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ [لقمان، ١٧]، وقوله: ﴿فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾ [المائدة، ١٣]، وقوله: ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ [الحجر، ٨٥]، وقوله: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ [الشورى، ٤٣]، وقوله: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه

---

(١) رواه مسلم ١/٥١٢ (٧٤٦)، والحاكم في المستدرك ٢/٦١٣، وأبو الشيخ في أخلاق النبي وآدابه (٩)، والبغوي في الأنوار في شمائل النبي المختار (١٩٧).

عداوة كأنه ولي حميم﴾ [فصلت، ٣٤]، وقوله: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ [آل عمران، ١٣٤]، وقوله: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ [الحجرات، ١٢].

وأمثال هذه التأديبات في القرآن كثير لا يكاد يحصر.

وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو المقصود الأول بالتأديب والتهذيب، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق؛ فإنه أُدِّب بالقرآن، وأَدَّب الخَلْقَ به، ثم لما أكمل الله له خُلُقَهُ أثنى عليه فقال ـ تعالى ـ: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم، ٤].

فسبحانه ما أعظم شأنه، وأتمَّ امتنانه، انظر إلى عظيم فضله، وعميم لطفه؛ كيف أعطى ثم أثنى؟!.(١)

ولقد كتب العلماء ـ رحمهم الله ـ في شمائل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخلاقه، فتحدثوا عن حلمه، وعفوه، ورحمته، وشفقته، وحيائه، وشجاعته، وجوده، وكرمه، وصدقه، وبره، ووفائه، وأمانته، وإيثاره، وتواضعه، ولين جانبه، وكرم معشره، ونحو ذلك.

فمن تأسى به، وتخلق بخلقه كان في أعز جوار، وأمنع ذمار.

فبحسب متابعته تكون العزة، والكفاية، والنصرة، كما أنه بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة؛ فالله ـ سبحانه ـ علق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته.

فلأتباعه الهدى والأمن، والفلاح، والعزة، والكفاية،

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٢/٣٥٧ ـ ٣٥٨.

والنصرة، والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة.

ولمخالفيه الذلة، والصغار، والخوف، والضلال، والخذلان، والشقاء في الدنيا والآخرة[(١)].

فَبَسْطُ شمائله الحميدة، ونشر أخلاقه الكريمة ـ من أمثل الطرق، وأقوم السبل لحسم الفساد، وكسر شوكة الباطل، بل إن ذلك مرقى العز، وسلم السعادة، وسبيل التأسي.

وفيما يلي من أسطر ذِكْرٌ لبعض ما رقمته أقلام العلماء في أخلاق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك على سبيل الاختصار والاختزال، دون ذكر للأسانيد، أو إكثار من الإحالات؛ إذ المقام ليس مقام إطالة وإسهاب.

فمما قيل في أخلاقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مايلي[(٢)]:

كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحلم الناس، وأشجع الناس، وأعدل الناس، وأعفَّ الناس.

وكان أسخى الناس، لا يبيت عنده دينار ولا درهم، وإن فَضُل

---

(١) انظر زاد المعاد لابن القيم ١/ ٣٧.

(٢) انظر الشمائل المحمدية للترمذي ص ١٨٦ ـ ٢٨٠، ٢٦٢ ـ ٢٨٣ تحقيق محمد عفيف الزعبي، وانظر الأنوار في شمائل النبي المختار للبغوي تحقيق الشيخ إبراهيم اليعقوبي ١/ ١٦١ ـ ٣٥٨، وأخلاق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي الشيخ الأصبهاني تحقيق عصام الدين الصبابطي ص ١٣ ـ ٩٨، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ص ٥٥١ ـ ٦٥٦، وإحياء علوم الدين ٢/ ٣٥٧ ـ ٣٨٧، وشمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه لابن كثير ١/ ٧٣ ـ ١٥٢.

شيء ولم يجد من يعطيه وفاجأه الليل لم يأوِ إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه.

وكان لا يأخذ مما أتاه الله إلا قوت عامه فقط، وكان ذلك من أيسر ما يجد من التمر والشعير، ويضع ذلك في سبيل الله، ولا يسأل شيئاً إلا أعطاه، ثم يعود على قوت عامه، فيؤثر منه حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء.

وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم معهن، وكان أشد الناس حياءً، لا يثبت بصره في وجه أحد.

وكان يجيب دعوة العبد والحر، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن، أو فخذ أرنب، ويكافىء عليها، ويأكلها، ولا يأكل الصدقة، ولا يستكبر عن إجابة دعوة الأَمَةِ والمسكين.

يغضب لربه، ولا يغضب لنفسه، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، ومرة يأكل ما حضر، ولا يردُّ ما وجد، ولا يتورع عن مطعم حلال، وإن وجد تمراً دون خبز أكله، وإن وجد شواء أكله، وإن وجد خُبْزَ بُرٍّ أو شعير أكله، وإن وجد حلواً أو عسلاً أكله، وإن وجد لبناً دون خبز اكتفى به، وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله.

وكان يعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس.

وكان أشد الناس تواضعاً، وأسكنهم من غير كبر، وأبلغهم من غير تطويل، وأحسنهم بشراً، لا يهوله شيء من أمور الدنيا.

يلبس ما وجـد، فمرة شملة، ومرة برد حبرة يمانيا، ومرة جبة صوف، فما وجد من المباح لبس.

يركب ما أمكنه، مرة فرساً، ومرة بعيراً، ومرة بغلة شهباء، ومرة حماراً، ومرة يمشي راجلاً حافياً.

يجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم.

لا يجفو على أحد، يقبل معذرة المعتذر إليه، يمزح ولا يقول إلا حقاً، يضحك من غير قهقهة، يسابق أهله، ترفع الأصوات عليه فيصبر.

وكان لا يمضي له وقت في غير عمل لله ـ تعالى ـ أو فيما لا بد له منه من صلاح نفسه.

لا يحتقر مسكيناً لفقره وزمانته، ولا يهاب ملكاً لملكه، يدعو هذا وهـذا إلى الله دعـاءً مستوياً، قد جمع الله ـ تعالى ـ له السيرة الفاضلة، والسياسة التامة، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب.

نشـأ في بلاد الجهل والصحارى في فقره، وفي رعاية الغنم يتيماً لا أب له، فعلمه الله ـ تعالى ـ جميع محاسن الأخلاق، والطرق الحميدة، وأخبار الأولين والآخرين، وما فيه النجاة والفوز في الآخرة، والغبطة والخلاص في الدنيا، ولزوم الفضل، وترك الفضول.

ما شتم أحداً من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة، وما لعن امرأة قط ولا خادماً بلعنة.

ومـا ضرب بيده أحـداً قط، إلا أن يضرب بها في سبيل الله ـ تعالى ـ وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله، وما خُيِّر بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم، فيكون أبعد الناس من ذلك.

وما كان يأتيه أحد حرٌّ أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته.

ولم يكن فظاً ولا غليظاً، ولا صخَّـاباً في الأسواق، وما كان يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح.

وكـان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام، ومَنْ قادَمَهُ لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرفَ.

وما أخذ أحدٌ بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر، وكان إذا لقي أحـداً من أصحـابه بدأه بالمصافحة، ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته عليها.

وكـان أكثـر جلوسـه أن ينصب ساقيه جميعاً، ويمسك بيديه عليهما شبه الحُبوة، ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه؛ لأنه كان يجلس حيث انتهى به المجلس، وما رؤي قط ماداً رجليه بين أصحابه؛ حتى لا يضيق بهما على أحد إلا أن يكون المكان واسعاً لا ضيق فيه.

وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليس بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه.

وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل.

وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه، وكان يعطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه، وسمعه، وحديثه، ولطيف محاسنه وتوجهه.

ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة.

ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم؛ إكراماً لهم، واستمالة لقلوبهم، وكان يكني من لم تكن له كنية، فكان يدعى بما كناه به، ويكني ـ أيضاً ـ النساء اللاتي لهن الأولاد، واللاتي لم يلدن يبتدىء لهن الكنى، ويكني الصبيان، فيتسلين به قلوبهم.

وكان أبعد الناس غضباً، وأسرعهم رضاً، وكان أرأف الناس بالناس، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس، وكان لا يشافه أحد بما يكرهه.

هذه بعض أخلاقه وشمائله، رزقنا الله حسن اتباعه، والاتساء به، والاهتداء بهديه.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد:

ففي خاتمة هذا البحث هذه نبذة لأهم ما ورد فيه:

١ ـ الخُلْق والخُلُق الطبع، والسجية، والخلق هو حال النفس بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار.

٢ ـ الخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد.

٣ ـ سوء الخلق هو بذل القبيح وكف الجميل.

٤ ـ سوء الخلق عمل مرذول، ومسلك دنيء يمقته الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل ويمقته الناس على اختلاف مشاربهم.

٥ ـ لسوء الخلق مظاهر عديدة وصور شتى، تنم عنه، وتدل عليه.

٦ ـ سوء الخلق كغيره من الأدواء؛ فله أسباب تجلبه، وبواعث تحركه.

٧ ـ لسوء الخلق علاج كغيره من الأدواء، وعلاجه يكمن في معرفة ضده وهو حسن الخلق، ومعرفة فضائله، وأسباب اكتسابه.

٨ ـ لحسن الخلق تعريفات عديدة منها:

أ ـ بذل الندى، وكف الأذى، واحتمال الأذى.

ب ـ بذل الجميل، وكف القبيح.

٩ ـ لحسن الخلق فضائل عظيمة في الدنيا والآخرة على الأفراد والمجتمعات.

١٠ـ لحسن الخلق أسباب تبعث على اكتسابه، وسبل تعين على التحلي به.

١١ـ المداراة ترجع إلى حسن اللقاء، وطيب الكلام، والتودد للناس، وتجنب ما يشعر بغضب أو سخط أو ملالة، كل ذلك من غير ثلم للدين في جهة من الجهات.

١٢ـ المداهنة من الدهان الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه.

١٣ـ حقيقة المداهنة هي إظهار الرضا بما يصدر من الظالم أو الفاسق من قول باطل، أو عمل مكروه.

١٤ـ ورد في البحث ذكر لبعض المعالم التي تتميز بها المداراة من المداهنة.

١٥ـ كما ورد فيه ـ أيضاً ـ ذكر لبعض المقتطفات من أخلاق النبوة.

هذا ملخص لأهم ما ورد في هذا البحث، فأسأل الله أن ينفع بهذه الكلمات، وأن يرزقني وإخواني المسلمين حسن الخلق، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

المحتويـــات

المقدمـــــة ٣

الباب الأول

سوء الخلق مظاهره وأسبابه

الفصل الأول: تعريف سوء الخلق وذمه ٩

المبحث الأول: تعريف سوء الخلق ٩

المبحث الثاني: ذم سوء الخلق ● ذم سوء الخلق ١٢

الفصل الثاني: مظاهر سوء الخلق ١٤

● مظاهر سوء الخلق ١٤

١ ـ الغلظة والفظاظة ١٤

٢ ـ عبوس الوجه وتقطيب الجبين ١٤

٣ ـ سرعة الغضب ١٥

٤ ـ المبالغة في اللوم والتوبيخ ١٧

٥ ـ الكبـــر ١٨

٦ ـ السخرية بالآخرين ١٨

٧ ـ التنابز بالألقاب ١٩

٨ ـ الغيبـــة ١٩

٩ ـ النميمـــة ٢١

١٠ـ سماع كلام الناس بعضهم ببعض وقبول ذلك دون تمحيص وتثبيت ٢١

١١ـ التجسس والتحسس ٢٢

١٢ـ مقابلة الناس بوجهين ٢٤

١٣ـ إساءة الظن ٢٥
١٤ـ إفشاء الأسرار ٢٧
١٥ـ المؤاخذة بالزلة ٣٠
١٦ـ عدم قبول الأعذار ٣١
١٧ـ التهاجر والتدابر ٣٣
١٨ـ الحسـد ٣٤
١٩ـ الحقـد ٣٦
٢٠ـ مجاراة السفهاء ٣٦
٢١ـ قلة الحياء ٣٦
٢٢ـ البخـل ٣٩
٢٣ـ المنة في العطية ونحوها ٣٩
٢٤ـ إخلاف الوعد ٤١
٢٥ـ الكـذب ٤٥
٢٦ـ كثرة المزاح والإسفاف فيه ٤٦
٢٧ـ الفخر بالنسب ٤٨
٢٨ـ قلة المراعاة لأدب المحادثة ٥٢
٢٩ـ قلة المراعاة لأدب المجالس ٥٣
٣٠ـ سوء التعامل مع الوالدين ٥٣
٣١ـ سوء العشرة مع الزوجة ٥٤
٣٢ـ سوء الخلق من بعض الزوجات ٥٥
٣٣ـ سوء معاملة الخدم والعمال ٥٥
٣٤ـ سوء الأدب من بعض الخدم والعمال ٥٦

٣٥ـ التقصير في حقوق الإخوان ٥٧
٣٦ـ سوء الأدب مع الجيران ٥٩
الفصل الثالث: أسباب سوء الخلق ٦٢
١ ـ طبيعة الإنسان ٦٢
٢ ـ سوء التربية المنزلية ٦٢
٣ ـ البيئة والمجتمع ٦٣
٤ ـ الظلم ٦٤
٥ ـ الشهوة ٦٤
٦ ـ الغضب ٦٥
٧ ـ الجهل ٦٥
٨ ـ الولاية ٦٥
٩ ـ العزل ٦٦
١٠ـ الغنى ٦٧
١١ـ الشهرة وبُعْدُ الصيت ٦٧
١٢ـ كثرة الهموم ٦٧
١٣ـ الأمراض ٦٨
١٤ـ كِبَرُ السن ٦٨
١٥ـ ضيق العطن ٦٨
١٦ـ الغفلة عن عيوب النفس ٦٨
١٧ـ اليأس من إصلاح النفس ٧٠
١٨ـ دنو الهمة ٧٠
١٩ـ التقصير في أداء الحقوق ٧٠

٢٠ـ قلة التناصح والتواصي بحسن الخلق ٧١
٢١ـ التكبر عن قبول النصيحة الهادفة والنقد البنَّاء ٧١
٢٢ـ قلة التفكير في أمر الآخرة ٧١
٢٣ـ مصاحبة الأشرار ٧١
٢٤ـ قلة الحياء ٧٢
٢٥ـ الطمع والجشع ٧٢
٢٦ـ وجماع ذلك كله ـ ضعف الإيمان ٧٢

الباب الثاني

علاج سوء الخلق

تمهيد: هل يمكن تغيير الأخلاق أوْ لا؟ ٧٤
الفصل الأول: حسن الخلق وفضائله ٧٩
المبحث الأول: تعريف حسن الخلق ٧٩
المبحث الثاني: فضائل حسن الخلق ٨١
الفصل الثاني: أسباب اكتساب حسن الخلق ٩١
١ ـ سلامة العقيدة ٩١
٢ ـ الدعـاء ٩٢
٣ ـ المجاهدة ٩٣
٤ ـ المحاسبة ٩٤
٥ ـ التفكر في الآثار المترتبة على حسن الخلق ٩٤
٦ ـ النظر في عواقب سوء الخلق ٩٥
٧ ـ الحذر من اليأس من إصلاح النفس ٩٥
٨ ـ علو الهمة ٩٨

٩ ـ الصبــر ٩٩
١٠ـ العفــة ٩٩
١١ـ الشجاعــة ١٠٠
١٢ـ العــدل ١٠٠
١٣ـ تكلف البشر والطلاقة، وتَجَنُّبُ العبوس والتقطيب ١٠٠
١٤ـ التغاضي والتغافل ١٠٣
١٥ـ الحلــم ١٠٤
١٦ـ الإعراض عن الجاهلين ١٠٥
١٧ـ الترفع عن السباب ١٠٦
١٨ـ الاستهانة بالمسيء ١٠٨
١٩ـ نسيان الأذية ١١٠
٢٠ـ العفو والصفح، ومقابلة الإساءة بالإحسان ١١٠
٢١ـ السخــاء ١١٣
٢٢ـ نسيان المعروف والإحسان إلى الناس ١١٥
٢٣ـ الرضا بالقليل من الناس وترك مطالبتهم بالمثل ١١٦
٢٤ـ احتساب الأجر عند الله ـ عز وجل ـ ١١٧
٢٥ـ تَجَنُّبُ الغضب ١١٧
٢٦ـ تَجَنُّبُ الجدال ١٢٠
٢٧ـ التواصي بحسن الخلق ١٢١
٢٨ـ قبول النصح الهادف والنقد البناء ١٢١
٢٩ـ قيام المرء بما يسند إليه من عمل على أتم وجه ١٢٢
٣٠ـ التسليم بالخطأ إذا وقع، والحذر من تسويغه ١٢٢

٣١ـ لزوم الرفق ١٢٢
٣٢ـ لزوم التواضع ١٢٣
٣٣ـ استعمال المداراة ١٢٣
٣٤ـ لزوم الصدق ١٢٦
٣٥ـ تجنب كثرة اللوم والتعنيف على من أساء ١٢٧
٣٦ـ تجنب الوقيعة في الناس ١٣٠
٣٧ـ أن يضع المرء نفسه موضع خصمه ١٣١
٣٨ـ أن يتخذ الناس مرآةً لنفسه ١٣٢
٣٩ـ مصاحبة الأخيار وأهل الأخلاق الفاضلة ١٣٢
٤٠ـ الاختلاف إلى أهل الحلم والفضل وذوي المروءات ١٣٤
٤١ـ أن ينتفع الإنسان بكل من خالطه وصاحبه ١٣٤
٤٢ـ توطين النفس على الاعتدال حال السراء والضراء ١٣٦
٤٣ـ معرفة أحوال الناس، ومراعاة عقولهم، ومعاملتهم بمقتضى ذلك ١٣٧
٤٤ـ المحافظة على الصلاة ١٣٨
٤٥ـ الصيـــام ١٣٨
٤٦ـ قراءة القرآن بتدبر وتعقل ١٣٩
٤٧ـ تزكية النفس بالطاعة ١٤٠
٤٨ـ لزوم الحياء ١٤٠
٤٩ـ إفشاء السلام ١٤١
٥٠ـ إدامة النظر في السيرة النبوية ١٤١
٥١ـ النظر في سير الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ ١٤٢
٥٢ـ قراءة سير أهل الفضل والحلم ١٤٢

٥٣ـ قراءة كتب الشمائل والكتب في الأخلاق ١٤٢
٥٤ـ الاطلاع على الحكم المأثورة ١٤٤
٥٥ـ معرفة الأمثال السائرة ١٤٨
الفصل الثالث: أمور تتعلق بالأخلاق ١٥٢
المبحث الأول: بين المداراة والمداهنة ١٥٢
ـ معالم المداراة ١٥٣
ـ معالم المداهنة ١٦٢
المبحث الثاني: مقتطفات من أخلاق النبوة ١٦٧
الخاتمة ١٧٥
المحتويات ١٧٧

في هذا الكتاب

- تعريفُ سوءِ الخلق وذمُّه .
- ٣٦ مَظْهراً من مظاهر سوء الخلق .
- ٢٦ سبباً من أسباب سوءِ الخلق .
- هل يمكن تغييرُ الأخلاقِ أَوْ لا؟
- تعريف حسن الخلق .
- ٢٦ فضيلةً من فضائل حسن الخلق .
- ٥٥ سبباً لاكتساب حسن الخلق .
- بين المداراة والمداهنة .
- ٢٠ مَعْلَماً من معالم المداراة .
- ٩ معالمَ من معالمِ المداهنة .
- مقتطفات من أخلاق النبوة .

دار ابن خزيمة
للنشر والتوزيع
هاتف : ٤٧٦٩٩٣٢

توزيع:
مؤسسة الجريسي للتوزيع والاعلان
ص.ب : ١٤٠٥ الرياض ١١٤٣١
☎ ٤٠٢٢٥٦٤ ـ فاكس ٤٠٢٣٠٧٦

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ ● الرياض

ردمك: ٠ - ٠٥ - ٧٤٧ - ٩٩٦٠